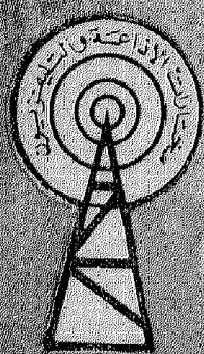


الشيخ محمد صالح المنجد



أبو حامد الغزالي

المفكر الشائر

بقلم: محمد الصادق عريون



مذاهب و شخصيات

أبو حامد الغزالي

المفكر الشائر

بقلم
محمد صادق عمرهون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رب أوزعني شكرك بما يليق بعظيم نعمك ، وألهمني حمدك بما
يبلغ رضاك ، استمطارا لغيث فضلك يا عظيم الفضل والاحسان •

وأسنانك بنور وجهك الذي اضاءت له السموات والارضين أن
تصلي وتسلم على خاصتك من خيرة خلقك محمد خاتم النبيين صلاة
وسلاما يبلغان من رضاك أن تهلا قلوبنا بحبيب حبيبك ، وتعرفنا
بقدره العظيم عندك لتكون في ظل لوائه يوم تكريمه منك باوام الحمد

أما بعد • فهذا بحث عن الامام اللوذعي ، العليم العبقري حجة
الاسلام أبي حامد الغزالي رضي الله عنه •

كتبته ملخصا اجابة لطلب المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب
والعلوم الاجتماعية اذ كتب الى في مناسبة مهرجان الغزالي بدمشق
أن اعد بحثا يلقي أو ملخصه في حفل المهرجان فكتبت ذلك الملخص
ومضى المهرجان في رعاية المجلس الموقر ، - ومضى البحث الى حيث
شاء من بيدهم أمره •

وكنت اذا صحبت الغزالي في كتبه وما كتب عنه حين اعداد بحث
المهرجان رأيت أن أبا حامد رحمه الله أعرق من مقال أو بحث ملخص
يعد على عجل ، ومع أن الغزالي عظيم الحفظ في التاريخ ، والكتابة عنه
كثيرة لكنه لا يزال يسع الباحثين بعلمه وعقله وقلبه •

وكنت أضمرت العزم أن أعيد النظر في كتابة بحث أوفى عن
هذا الامام بعدما رأيت تعدد مؤاحيه ، وأن الكاتبيين لم يوفوه حقهم ،
ولا تزال فيه جوانب غامضة ، ولا تزال في كتبه موضوعات لم يمسها
الباحثون الا برفق •

لذلك كتبت هذا البحث ليكون سطرًا في تاريخ هذا العبقري
العليم ، وأنى أرفعه الى شباب الاسلام في أقطار الارض ليقرأوا من
تاريخ اسلامهم ما يعرفون به مكانة أمتهم من حياة العبقري والعقريين
والله يهدي من يشاء الى سراط مستقيم •

عصر الغزالي

القرن الخامس الهجري الذي كان مغدق حياة ابي حامد الغزالي ومراحها ، ومسرحها الذي كانت تسرح في اودية معارمه . تطوف بأفاته - أو على التحقيق - النصف الثاني من ذلك القرن الذي عاشه هذا الامام العبقري ، وقضى حياته متقلبا في ارجائه كان اشبه بمحيط يموج بشتى تيارات الافكار والعلوم والمعارف ، والفلسفات والعقائد والمذاهب والنحل وتندفع الى خضمه من جميع جوانبه روافد من التراث الفكري لتصب فيه عصارة الفكر الانساني في مدى قرون من الماضي السحيق منذ كان للعقل البشري سلطان النظر في الكون وتعمق أسرار الوجود .

فعصر ابي حامد عصر انتهت اليه صفوة الدراسات الاسلامية في القرآن العظيم وتفسيره وقراءاته ولغته وألفاظه ، وأسلوبه ، وبلاغته ، ونظمه ووجوه اعجازه ، وسائر علومه وفنونه .

كما انتهت اليه خلاصة الدراسات الاسلامية في السنة النبوية دراية ورواية ونقلًا وتمحيصًا وفهما وتفقهًا وتدوينًا . واختلاف أنظار العلماء في استنباط الاحكام ومواقع الاجتهاد من أصولها .

كما وصلت اليه آثار الصحابة . وآثار تلاميذهم من أئمة التابعين علما وعملا وآثار من جاء بعدهم من أئمة العلم وطرائقهم في استنباط الاحكام للحوادث التي جرت ، وغمرت الحياة بكثرتها في الفتوحات التي كانت «بوتقة» انصهرت فيها عملية امتزاج الامم والشعوب التي استظلت على أيدي الفاتحين بظل الاسلام ودخلت في ساحته مؤمنة صادقة الايمان أو مسالمة تتربص لتعرف موقفها من الاحداث المفاجئة وموقفها من هذا الدين الجديد الذي غير عليهم معالم الحياة ، وفتح لهم منافذ الهدايا ودعاهم الى معرفة حقيقة انسانيتههم - ودعاهم الى التحرر الفكري ليتخلصوا من عبودية العقائد والافكار الموروثة ، ويعيشوا عيشة انسانية كريمة .

وهذه الدراسات في أصل الاسلام - القرآن والسنة - هي التي استقر على أساسها الاجتهاد التشريعي في الفقه الاسلامي في عصور الائمة الاربعة وتلاميذهم وأضرابهم من اهل الاستنباط وتخريج احكام الفروع من أصولها .

وهي التي ثارت من حولها قبل ذلك وبعده الاختلافات الفكرية في جوانب العقيدة التي نشأت على دعائهما الفرق الإسلامية وغيرها من المذاهب والنحل في أصول الدين وفلسفته .

وهي التي كانت منبعاً لدراسات لغوية وأدبية ، قامت على قواعدها فنون من الأدب والنقد البلاغي إلى جانب تدوين متن اللغة وتعقيدها وروايتها مما حفظ تراث العربية نقياً عن الشوائب منذ عصرها الجاهلي إلى أن كانت شغل الحياة في عاصمتي العربية البصرة والكوفة دهرًا طويلاً ، ثم تخطت إلى عدوة الاندلس في ألوان أضفت عليها تلك الرياض الإسلامية المفقودة كثيراً من طبيعتها الفينائية المخصصة .

وعلى الجملة كانت هذه الدراسات مصدراً لتلك الموسوعات الفقهية التشريعية التي لا حصر لها على ما تنبئنا به فهارس المكتبات العظمى في العواصم الإسلامية الكبرى في الشرق والغرب أينما وصل نداء الإسلام واستقرت قدم المسلمين .

كما كانت هذه الدراسات مصدراً للموسوعات الفلسفية والعلوم العقلية ودراسة اللغة والأدب التي ما ج بها العصر العباسي واستبحرت في عصر الخليفة المأمون ومن بعده من الخلفاء والأمراء وملوك الشرق وحكامه في هذا العصر وعصور الدول المنفصلة عن الحكم العباسي .

وعصر أبي حامد - إلى جانب ذلك - عصر تلقى مع هذه الدراسات الإسلامية الواسعة لقاح حضارات الأمم ونتائج العقول ، وثمرات الأفكار ، وسبحات الإخيلة وإشراقات القلوب ماثلة في كلمات الزهاد وأشجع الأرواح في إشارات الصوفية ، ونزعات الإلحاد في فلتات الزندقة ، وهدى الإيمان ونسك التعبد ، وحيرة الشك وسفسطة المنطق ، ومنطق الفلسفة في الجدل حول أصول الدين ، وفلسفة العقيدة في عبارات المتكلمين ، إلى جوانب أخرى زخرت بها الحياة الاجتماعية في محافل الخلافة والملك وأندية المترفين ،

كل ذلك تلقاه القرن الخامس الهجري - عصر أبي حامد الغزالي - ممتزجاً بالحضارة الإسلامية - التي أنضجها العقل الإسلامي بخصائصه الفريدة في ظل القرآن والسنة وفنونها امتزاجاً جعل منها حياة لها سيماتها الخاصة ، فلا هي شرقية ، ولا هي غربية ولا هي فارسية أو رومانية ولا هي هندية أو صينية ولا هي عربية ، ولا هي إسلامية خالصة ، ولا هي غير إسلامية ، وإنما هي حياة إنسانية تمثل معارف الإنسان وفلسفته في الحياة بخيره وشره وغرائزه وعقله ؛ وروحه ونفسه وضلاله وهداه في سائر أطواره العقلية والاجتماعية أكمل تمثيل .

هذه الحياة وان هي توحدت في صورتها الانسانية العامة لكنها احتفظت في ظل الدراسات الاسلامية التي لم ينقطع عنها مددها ، بخصائص عناصرها الجزئية التي تؤلفها بمجموعها كوحدة لها حقيقتها المميزة لوجودها ، فهي اشبه بالانسان في صورته البشرية التي لم تسلب عن اعضائه التي تؤلف حقيقته البشرية خصائصها الجزئية فاليد في الانسان لها مفهومها ومكانها من جسم الانسان ولها عملها فيه ، والعين والاذن والقلب ، وكل عضو من سائر اعضائه له معناه ومفهومه ومكانه وعمله ، لا يطغى عليه غيره ، ولا يأخذ معنى ومفهوم عضو سواه ، ولكنها جميعها تؤلف مجتمعة جسم الانسان - الذي يكتسب باجتماعها على نظامها الالهي ووضعها الطبيعي مفهومه ومعناه ويؤدي عمله في الحياة . انسانا لا عضوا في انسان .

فالمذ الحضارى فى ظل الاسلام جمع اشياء الامم والشعوب بترائها الفكرى وعقائدها وفلسفاتها واخلاقها وعاداتها وعلومها ومعارفها وثقافاتنا والوان تربيتها وضروب سلوكها فى الحياة .

فلسفة الاغريق ، ودينسك الهنود وحكمة الصين ، وزندقة الفرس وطقوسها الملكية واشتراع الرومان ونظمهم الاقطاعية وسائر ما عرف على وجه الارض من نتج العقل الانسانى واثباته وجموحه وضلاله وهدايته وجميع ما عرف من نظم اجتماعية ، كلها آوت فى ظل الحضارة الاسلامية الى ربوة ذات قرار ومعين من طبيعة الاسلام ، فهضمها الاسلام وتمثلها فى داخل حقيقته الفكرية والاجتماعية صورة انسانية موحدة الاطار وان كانت متعددة الانوان مختلفة الرسوم .

وقد كان من اثر ذلك الامتزاج الحضارى ان اصبح المجتمع الاسلامى على ترامى اطرافه . واتساع رقعته ميدانا لتفاعل تلك العناصر الفكرية والاجتماعية ، ذلك التفاعل الذى تولدت منه التيارات العقلية والروحية المختلفة التى قامت فى ظلها الفرق المختلفة وفى احضان هذه الفرق نشأ الجدل ونهد علم الكلام للدفاع عن العقيدة الاسلامية بسلاح خصومها الذين هاجموها بالجدل المنطقى تارة ، وبالسفسطة الجدلية تارات .

ومن باب هذا الجدل الكلامى دخلت الفلسفة بقضاياها فى دراسة عوالم ما وراء الطبيعة ، ووضعت الالهيات والروحانيات موضع التحليل المنطقى لتتقاس بمقاييس الفروض العقلية .

ومن نافذة هذه الفلسفة فى دراسة النفس الانسانية والبحث فى حقيقتها واحوالها وصلتها بالجسم وبعد مفارقتها تفلسف التصوف الى ان اصبح بهذا التفلسف النظرى المعقد فنا عقليا له قواعده واصوله وهصطلحاته التى مزجته فى اكثر احواله ولا سيما عند الطبقات المتأخرة .

من اربابه بالفلسفة النظرية في فهم حقيقة العقل والروح والنفس وهذه الحقائق هي التي يدندن حولها هذا التصوف المتفلسف . ولم يكن ارباب التصوف العملي من متقدمي الطائفة يعنون كثيرا بهذه المباحث النظرية .

الغزالي في عصره

في هذا الخضم الفكري المتلاطم بامواج التيارات العاصفة نهد ابو حامد محمد بن محمد الغزالي عبقريا نسيج وحده فكان أمة في اهاب رجل ، ورجلا في عقل أمة ، وعلى مهاد هذه الحياة المواراة بأعاصير الفكر شأ ابو حامد فريدا في بابه عصاميا بين أقرانه وأترابه بين أبوين فقيرين، نلفته الصوفية وهو في ريعان طفولته ، ومهد صسباه فأرضعته بلبانها وحضنته فألقمته ثديها ، وتفتح احساسه بالحياة بين احضانها وشم عير التوجود في أريجها .

كان ابوه رجلا فقيرا صالحا ، شديد الحب للعلم والعلماء ، يخدمهم ويوجد في الاحسان اليهم والتفقة عليهم بما تملكه يده ويطوف على المتفقهة وييسلهم وكان اذا سمع كلامهم بكى وتضرع وسأل الله ان يرزقه ابنا ويجعله فقيها ويحضر مجالس الوعظ فاذا طاب وقته بكى وسأل الله ان يرزقه ابنا واعظا .

وكان يعمل بيديه في غزل الصوف ليأكل من كسبه وعرق جبينه ، تحريا للحلال الطيب في رزقه وطعمة اولاده فاستجاب الله دعاه وقبل منه ابتهاله ، فأعطاه ولدين احمد ومحمدا ، وأثم عليه فيهما نعمته ، فكانا من افذاذ العلماء ، كان احمد ، وهو أكبر الاخوين ، واعظا تلين العسم الصنخور عند سماع وعظه ، وترعد فرائض القساة لقوارع زجره وتهتز قلوب الحاضرين في مجالس تذكيره ، يبكي العيون ، ويستولي على الافئدة والقلوب يوقظ سكارى الاحلام، ويهدي الحيارى من الانام ، ويرد الشاردين الى حظيرة الايمان ويذكر الناسى ، وينبه الوسنان .

ومن لطيف ما يروى في تأثير وعظه ما يتصل بأخيه الامام ابي حامد اتصالا غير مجرى حياته . روى الزبيدي في شرح الاحياء ان سبب سياحة الامام ابي حامد الغزالي وزهده في الدنيا وزخرفها انه كان يوما يعظ الناس فدخل عليه أخوه أحمد فأنشده .

أخذت بأعضادهم اذ ونوا	: وخلفك الجهد اذ اسرعوا
وأصسبحت تهدي ولا تهدي	: وتسمع وعظا ولا تسمع
فيا حجير الشجر حتى متى	: تسن الحديد ولا تقطع

فمنذ ذلك قطع أبو حامد علائقه بالدنيا وساح في الارض على قدم
الفقراء الناسكين تاركاً وراءه جاهنا عريضا وصيتا داويا ومكانا بين افذاذ
العلماء مرموقا وهكذا تحققت في اكبر الولدين إحدى اميتى والده الرجل
الصالح .

أما أصغر الاخوين محمد الغزالي ، فكان عالم الدنيا في عصره ، وامام
الائمة في زمنه ومدره الامة في وقته . وحجة الاسلام في سائر امصاره
ولسان الملة في محافلها بز العلماء فلم يتعلقوا بغبار جواده ، ملأ الدنيا
دويا باسمه ، وشغل الحياة بمؤلفاته وكتبه وآرائه وأفكاره فكان ملء
سمعها وبصرها ، ولا يزال يشغلها بحثا وراء شخصيته والكشف عن
عبقريته وكان فوق ما تخيل ابوه في اميتته ولو رآه في جلاله قدره لفتن
به فتنة المعجب بما هو فوق عجبه وأميتته .

نشأة الغزالي

كان والد ابى حامد الغزالي رحمه الله قد اصطفى من بين من جالسهم
من زهاد العلماء والمتعبدين رجلا صوفيا استصفاه لنفسه واستخلصه
لصداقته ووده فلما أحس دنو اجله اوصى الى هذا الصديق الفقير
الناسك بابنيه أحمد ومحمد ، وهما أعز ما خلف وراءه في الدنيا ، وقال
له وصيته : (ان لى لتأسفا على تعلم الخط واشتتهى استدراك ما فاتنى في
ولدى هذين فعلمهما ولا عليك ان تنفذ في ذلك جميع ما أخلفه لهما)
فلما مات رحمه الله اقبل الصوفى على تعليمهما الى أن فنى ذلك النذر انيسير
الذى كان خلفه لهما ابوهما وتعذر على الصوفى القيام بقوتهم ، فقال
لهما : (اعلمنا انى قد انفقت عليكما ما كان لكما ، وأنا رجل من الفقر
والتجريد بحيث لا مال لى فأواسيكما به ، وأصلح ما أرى لكما أن تلجأ
الى مدرسة فانكما من طلبة العلم ، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما)
ففعلا ذلك وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهم .

ونحن نقف مع هذا النص التاريخى الذى يجمع عليه مؤرخو الغزالي
والذى كان يحكيه أبو حامد نفسه بعد ان استحكم امره وعلا قدره ، ويعقب
عليه بقوله :

(طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون الا لله) (١) متسائلين

أولا - فى أية سن ترك والد ابى حامد ولديه وذهب الى رحمة الله بعد ان
أوصى بهما الى صديقة الصوفى ؟

(١) طبقات ابن السبكي

ثانياً : من هو ذلك الصوفي ؟ وما مكانته بين أهل العلم وشيوخ الصوفية في عصره ؟ وهل كان يتولى تعليم ولدى صديقه بشخصه ، فيدرس لهما فنون العلم ويؤديهما بالعمل ، ويأخذهما بشيء من أدب السلوك الذي كان يؤخذ به المریدون في طريق انقروم ؟ واذا صح هذا فماذا كان يدرس لهما من فنون العلم ومعارف عصره ؟ وإلى أى حد كانت استجابتهما لوصيهما في منهجه الذي عاش عليه في حياته الصوفية ؟

أو أن هذا الشيخ الوصى كان حظه معهما مجرد الاشراف على تعلمهما بالرعاية والانفاق عليهما من مالهما الذي خلفه لهما والدهما لينفق منه في سبيل تعليمهما كما يشرف - الآباء على تعليم أبنائهم بتسليمهم إلى معاهد العلم ومدارسه ؟

هذا لون من الغموض الذي يحيط بأولى خطوات أبى حامد الغزالي نحو الحياة الفكرية التي كونت شخصيته العلمية . وعلى دعائهما قامت عبقريته ، ومن آفاقها ذاع صيته واشتهرت امامته .

والكشف عن هذا الغموض له أهميته العظمى في التمهيد إلى التعرف على حياته وتتبع خطاه في سيرته التي نحاول ان نجد فيها مفتاح عظمته .

بيد أن المراجع التي بين أيدينا من مؤلفات الغزالي وفي بعضها يتحدث عن جوانب من سيرته العلمية ، وحياته الفكرية ، والاطوار التي مر بها ، لم تسعنا بشيء من الإجابة عن هذا التساؤل .

وكذلك مؤرخو الغزالي ومترجمو حياته والمعنيون بتفاصيل سيرته من القدامى والمحدثين واخصهم ابن السبكي في الطبقات الكبرى التي أطل فيها رشاء القول من حياة الغزالي بما يصلح ان يكون كتاباً جامعاً مستقلاً لو جرد من الطبقات . لم يعرج أحد منهم على الحديث عن هذه الخطوة الهامة من نشأة الغزالي التي كان منها اتجاهه الفكري ، وبها بدأت حياته العلمية التي انتهت به اماماً من شيوخ الصوفية وذوى مقاماتهم العالية .

واذا كنا لا نستطيع الإجابة الكاشفة عن شخصية ذلك انصوفي الوصى على أبى حامد وأخيه لنعرف من هو ؟ وما مكانته بين أهل العلم في عصره ، وما مقامه بين شيوخ الصوفية من اصحاب وقته ، اذ لا سبيل إلى هذه المعرفة الا نقل التاريخ ومنطقه وليس عندنا منه شيء في هذا . فاننا نستطيع ان نستخبر مظان الحوادث وقرائن الاحوال لتقرب منا معرفة المواطن الأخرى من التساؤل عسى ان يكون في ذلك مايفتح للبحث باب الحقيقة على ايدي محبى الغزالي من الباحثين .

والذى تدل عليه المظان والفرائن ان والد ابى حامد ترك ولديه فاضيا الى رحمة الله وهما فى سن الطفولية الشادية المدركة لاوائل طلب العلم على نهج التربية الاسلامية فى تلك العصور ، وهى مرحلة كانت تبدأ أول ما تبدأ بحفظ القرآن الكريم وتجويده ومعرفة احكام قراءته وترتيبه مع شىء من فقه العبادات الاولى فى الطهارة والصلاة وشرائطها واوقاتها وذلك يبدأ فى الاعم الاغلب قريبا من السنة السادسة وهذا ما نرجحه فى السن التى تركهما ابوهما فيها أو قريبا منها اعتمادا على ما يفهم من مضمون الوصية المتقدمة ، كما نرجح ان وصيهما الصوفى كان رجل صدق ، وكان عالما من اهل التربية الروحية والرياضة النفسية بصفة عامة تعويلا على ان اباهما كان يريد بوصيته الى صديقه الصوفى ان يعوضه الله تعالى فى ولديه ما فاته فى نفسه من عدم التعلم ، فيجعل من ذريته علماء على نهج ما رآه ، واحبه فى سيرة العلماء الذين عاشهم وخدمهم وواساهم بنفسه وماله ، فلا بد ان يكون اختياره وصى ولديه من طراز من تشناق نفسه ان يكون ولداه على نهجه وطريقته بقدر ما تصوره ادراكه واتسع له عقله ويتأيد ترجيحنا بظاهر قول ابن السبكي فى الطبقات عند حكايته وصية والد ابى حامد الى صديقه الصوفى بتعليم ولديه وتربيتهما : (فلما مات أقبل الصوفى على تعليمهما) وأظهر من عبارة ابن السبكي فى تأييد ترجيحنا عبارة شارح الاحياء الامام مرتضى الزبيدى فانه قال : (فأقام بهما وعظّمهما الخط وأدبهما) فتعليم الخط والتأديب انما يكونان غالبا فى نحو هذه السن ، ولا يقوم بهما الا من كان وافيا بحقهما على نهج ما كان معروفا فى ذلك الزمان من مفهوم التعليم والتأديب .

ومن هنا نرجح ان وصيهما الصوفى هو الذى تولى بنفسه تحفيظهما القرآن الكريم وتولى تعليمهما ما يتناسب مع سنهما من مبادئ الفقه التبعدى فى الطهارة والصلاة بالقدر المأمور به فى هذه السن كما جاء فى الحديث الشريف من قوله صلى الله عليه وسلم : (مروا أولادكم بالصلاة السبع) ، وهى سن التمييز ، ويراها الغزالي طورا جديدا (١) من أطوار وجود الانسان الذى يدرك به امورا زائدة على عالم المحسوسات .

واذا صح هذا فلا بد ان يكون هذا الشيخ الصوفى قد سلك فى تربيتهما عمليا مسلك الادب النفسى والتهذيب الروحى عملا وتأسيسا بحاله وذوقه حتى تأهلا لطلب العلم فى مدارس بين طلابه المنقطعين له .

ونرجح ان يكون ذلك التأهل للاستقلال بطلب العلم فى مدارس الخاصة كان فى حوالى العاشرة من عمر أبى حامد ، ويزيد عليه اخوه احمد بما يكون بين الاخوة المتقاربين فى الزمن ، وهذه السن هى السن

(١) المنقذ من الضلال

التي يبدأ فيها تفتح الإدراك المؤهل لطلب العلم. استقلالاً وفيها يبدأ
تعرف الحياة مع القرناء وفي معاشرته الناس ولذلك اعتبرها الشارح طوراً
آخر بعد طور مجرد الأمر بالصلاة ، فأكد فيها طلب العبادة ممن يعقل
القربة في آدائها في الحديث السابق على ما ورد فيه (واضربوهم عليها
لعشر) .

ويؤيد ما ذهبنا إليه قول الشيخ الصوفي الصدوق لوصييه بعد
نفاد ما خلفه لهما والدهما عنده من مال (واصلح ما أرى لكما أن تلجأ إلى
مدرسة فإنكما من طلبة العلم) فاعتباره . لهما من طلبة العلم واطمئنانه
عليهما في لجؤهما إلى مدرسة من مدارس طلب العلم ، يعيشان فيها عيشة
طلبة العلم دليل واضح على أنهما كانا في ذلك الحين قد بلغا سنًا تؤهلهم
لحياة طلبة العلم المستقلة ، ولا تكون هذه السن في الغالب فيما دون
العاشره لاصغرهما .

ويخلص للبحث من هذا أن أبا حامد الغزالي وإخاه أحمد تركهما
والدهما في رعاية وصيه وصديقه الشيخ الصوفي وهما في ريعان
الطفولية المدركة وأنهما مكثا في احضان هذه الرعاية سنوات حفظاً فيها
القرآن الكريم وتلقياً مبادئ الفقه التعبدى مع العمل والتأسي بسلوك
شيخهما الصوفي الذي كان ينزل منهما في الرعاية والتأديب منزلة الوالد
البر الشفيق .

ويظهر من اخلاص هذا الشيخ الصوفي وصراحته وتلمس ما يصلح
لوصييه في طلب العلم بعد إذ عجز عن القيام به أنه كان رجل صدق ،
لأنه أحس عبء الوصية ، وقدر خطر المهمة الملقاة على عاتقه ، وكان قد
نفذ النذر اليسير الذي تركه لهما والدهما من المال في أمانته وتعذر عليه
القيام بقوتهم ، وخشى عليهما التخلف عن تحقيق وصية والدهما ،
فصارحهما وأرشدهما إلى ما رآه يصلح لهما في حياتهما ، واستمعا إلى
نصيحته ولجأ إلى مدرسة في بلدهما من مدارس العلم التي كان يأوى
الطلاب إليها منقطعين ، للدرس ، يقيمون في خلواتها ويرزقون فيها
برؤاتب يعيشون بها وكانت هذه المدارس منتشرة في كثير من البلاد
الإسلامية منذ القرن الرابع الهجري .

هذا جانب من حياة أبي حامد الغزالي في طفوليته مجهول المعالم ،
ولو لم يكن أبو حامد عبقرياً ممتازاً في تاريخ الفكر الإسلامى لما كان في
جهالة طفوليته غرابية ، ولكن امتياز الغزالي الذي بهر الحياة في عصره
والعصر التي توالى بعده هو الذي جعل لهذا الجانب من حياته أهمية
خاصة تبعث الأسف لدى كل باحث في سيرته لينظم حلقاته في سلك

متواتر ، تستند فيه كل حلقة طارئة الى حلقة اخرى سابقة ، لان حياة العباقره تتواكب خطواتها فى نمط من التماسك يحمل فى طياته ارهاصات لما يأتى بعدها من اعجاز :

يبد ان هذه الارهاصات قد تغمرها الحوادث الاجتماعية المتلاحقة فى البيئة انتهى نهد فيها العبقري فلا يلتفت اليها التاريخ ، فتبقى مجهولة ابدا او الى حين .

وعصر أبى حامد المفعم بالاحداث الفكرية والاجتماعية المليء بالائمة من العلماء والزهاد والفقهاء والفلاسفة والمتكلمين وزعماء الفرق واهل الجدل والادباء والشعراء ، وسائر قادة الفكر ، وبيئته العامة فى هذا العصر ، وفى قطره وبلده وبيئته الخاصة فى اسرته الفقيرة المكسودة المنزوية فى ذرى الصلاح وتواضع التقوى المتصوفة بمجرد المحبة للصوفية وخسمتهم وتتبع آثارهم فى آداب سلوكهم كل ذلك مما يضعف صسوت الارهاصات والا يساعد على التفتات التاريخ الى تدوين مالمع فى طفولية أبى حامد واضرابه ممن نهدهوا فى هذا الجو من الحياة .

ولهذا لا يبدأ التاريخ الحديث الجاد عن هؤلاء العباقره - عند ما ترغمه عبقرياتهم الداوية على ان يفرد لهم فى كتاب الزمن صفحات - الا منذ يبدأون صلاتهم بالمجتمع الفكرى فى معاهده الدراسية « الرسمية » أو يبدأون فى عمل خالد يغير وجهه الحياة ويوجه التاريخ، وللانبياء والرسل فى ذلك المثل الاعلى .

ونحن نرجح أن هذه المرحلة بدأت فى حياة أبى حامد الغزالى عندما تحدث اليه والى أخيه وصيهما الشيخ الصوفى فى صراحة واخلاص عند تفاد ما تركه لهما أبوهما عنده من مال قليل وأنه رجل فقير ، يعيش زاهدا على قدم اتكوكل ، لا مال له فيواسيهما منه ، وأن أصلح ما يراه لهما ان يلجأ الى مدرسة لانهما من طلبة العلم .

ونرجح كذلك ان هذه المدرسة التى لجأ اليها باشارة شيوخهما الصوفى هى المدرسة الرسمية الاولى التى تتلمذ فيها أبو حامد فى دراسة الفقه الشافعى ببادة طوس على أول استاذ «رسمى» عرف فى تاريخه ، وهو الامام احمد بن محمد الراذكانى وان لم يكن فيما بين ايدينسا من المراجع ما يدل على أن « انراذكانى » كانت له مدرسة أو كان أستاذا فى مدرسة وانما المعروف أنه كان من فقهاء الشافعية فى بلدة طوس ، بلد أبى حامد الغزالى ولهذا يقول ابن السبكي فى الطبقات : « قرأ أبو حامد فى صباه طرفا من الفقه ببلده على أحمد بن محمد « الراذكانى » تفقه عليه قبل رحلته الى امام الحرمين ويقول فى ترجمة الراذكانى : وهذا الراذكانى أحد أشياخ الغزالى فى الفقه .

وقراءة ابي حامد طرفا من الفقه في صباه بببلده معقول ان تكون بغداد مرحلة الطفولية التي مرت في حضانه معلمه الاول الشيخ اصنوفى ، وهذا هو الوقت الذى لجأ فيه ابو حامد مع أخيه الى مدرسة يحصل لهما منها قوت يعينهما على وقتهما استجابة لنصيحة شيوخهما .

فالراذكانى اذا لم يكن له مدرسه خاصة يدرس بها فلا أقل من أنه كان فى بلده مرجعا لفقه الشافعيه يدرسه فى مدرسة ، أية مدرسة أو يدرسه فى بيته أو مسجد بلده على عادة علماء عصره لتلاميذ مدرسة كانت معلومة لطلاب العلم ، يلجأون اليها ارتفاق بما هو موظف الاساتذتها وطلابها من من خيرات يحصل لهم منها ما يعينهم على دراسة العلم وطلبه وتكون هى التى لجأ أبو حامد وأخوه اليها وكانت السبب فى سعادتهما وعلو درجتهم .

الغزالي فى مهاد الصوفية

استقبلت الصوفية أبا حامد الغزالي فى مهده حياته بين احضان أبوين فقيرين صالحين يعيشان من كسب اليد وعرق الجبين ، تحريالللحال الطيب من رزق القوت ، وكان أبوه محبا للعلم والعلماء ، عاشقا للصوفية والزهاد يواسيهم بما يستطيع الحصول عليه من قليل الكسب بغزل الصوف ويقوم بنفسه على خدمتهم ، ويلوذ بهم ، ويلزم مجالسهم ويسمع وعظهم يتأثر بحالهم ويتمنى على الله ان يرزقه ولدا يكون من العلماء السالكين طريقهم ولما لم تسعفه الحياة بفسحة العمر بعد رزقه ولديه أحمد ومحمد أوصى بهما الى صديقه وصفيه الشيخ الصوفى الذى كلفهما منذ ان شباعن المهدي ، ودرجا فى مدارج الطفولية حتى أوصلهما الى طلب العلم فى معاهده الدراسية .

فأبو حامد الغزالي تلقى أول ما تلقى آداب الصوفية وسلوكهم عظما وعملا بقدر ما سمحت به طفولته الغضة المتفتحة كالزهر فى مطالع الربيع على يد رجل لم يعرف عنه الا انه صوفى كان صديقا لابييه ، ثم وصيا عليه وعلى أخيه ، وقد صدق الرجل معهما فى وصايته . ولا بد ان يكون قد صدق معهما فى صوفيته ، فلقنهما آداب السلوك وعلمهما آداب الطريق فى سن تكون مرآة النفس باقية فيها على جلاء الفطرة مصقولة لا قطة .

ومرايا النفوس الانسانية لا تتزاحم فيها الصور على كثرتها ولا يحجب بعضها بعضا ، فلكل صورة انطبعت فى أديمها مكان يحفظها بخصائصها التى استقرت عليها ، وقد تبرزها المرآة عند استدعائها اذا توافرت استباب ظهورها .

فالتست الصوفى والسلوك الصوفى ، والآداب النفسى على النهج

الصوفي كان اول صورة انطبعت في مرآة النفس والفكر عند أبي حامد الغزالي ، وهي اول نقطة بدأ منها خط سيره في الحياة الروحية والفكرية التي كانت مجالا لعبقرية حجة الاسلام .

ومن غرائب اسرار القدر الالهي في حياة أبي حامد رحمه الله تعالى ان ما كان اول نقطة بدأ بها خط سيره في الحياة كان يعنصره الاصيل آخر نقطة انتهى عندها خط سيره في هذه الحياة ، أعني أن أبا حامد بدأ - عن غير قصد منه - صوفيا ، وانتهى بقصد ونية وبصيرة صوفيا ، والفرق بين الصورتين . صورة البداية : وصورة النهاية هو الفرق بين صورتين انطبعتا في لوحى مرأتين اختلفتا سعة وضيقا ، وصغرا وعظما ولكن خصائص الصورة وملامحها الاصيلية واحدة في الحالين .

فهل كان لآخر حياة أبي حامد الصوفية التي انتهى اليها بعد تبصر وبحث وتبحر في العلوم والمعارف ارتباط بأول حياته التي بدأ بها صوفيا بأدب التربية وعوامل البيئة دون اختيار أو تفكير - ؟ وهل كان لاول حياة أبي حامد الصوفية تأثير شعورى في آخر حياته الصوفية المفكرة على معنى أن الصورة التي كانت منطبعة في مرآة نفسه دون اختيار منه أو تمهيد لذلك الانطباع الذى كان نتيجة لمجرد ملاقة المرآة النفسانية للصورة الصوفية المصغرة هي التي ظهرت وكان لابد لها أن تظهر عندما توافرت لها أسباب الظهور فى اطار مرآتى أعظم اتساعا وأجود صقلا وأصفى اديما بما لا يقاس به اطار الصورة الاولى الا كما يقاس العقل الانساني عند الطفل فى مهيد رضاعه بالعقل الانساني عند العبقري فى ذروة تفكيره وذكائه ؟ .

فلو لم تبدأ حياة أبي حامد الغزالي رحمه الله بصورة من الصوفية الساذجة ، ترسبت فى خفايا نفسه لما انتهت الى هذه الصوفية المبصرة التي تملكك عليه تفكيره وهو فى ذروة عظمته وأخذت بمجامع شعوره وحسنه

ليس هذا حتما من الامر فى نظر المنطق العقلى ، لكن العلم - والعلم بأعم من منطق العقل - لا ينكره ، لان العلم يؤيد أثر الترسيبات النفسانية فى ظواهر الوجود النفسى : وظهورها عند استدعائها فى الوقت المناسب أكثر مما يؤيد أثر الترسيبات العقلية فى ظواهر الوجود العقلى ، لان العقل يعتمد فى مدركاته على منافذ الحس ، وهي متغيرة لا ثبات لها فى خزانة العقل ، وأما النفس الانسانية ، أعني الروح الحية المدركة بذاتها فهي لا تعتمد فى أدراك الحقائق وتصورها على أمر خارج عنها لانها تدركها بذاتها وطبيعتها ، فادراكاتها ثابتة لا تتغير ، بيد أنها قد تحجب فسيلا تظهر ، فيتوهم أنها ذهبت ، وقد يدخل بطريق الاشتباه فى المدركات لا فى نفس الإدراك .

هذا التوافق بين بدايه أبى حامد الغزالي ونهايته هو - فى نظرنا -
أول خطوة فى الاتجاه الصحيح الى الاهتداء لمعرفة مفتاح شخصيته وهو
اتجاه مغفول عنه لم نعلم أحدا من الباحثين فى حياة الغزالي وقف عنده
وقفة بحث وتحليل ، تبين معالم الطريق من أوله لدراسة حياة هذا الامام
العبرى مع أنه أحرى جوانب الغزالي بالنظر لانه جانب انفراد به من بين
سائر العلماء والمفكرين الافذاذ ومفاتيح شخصيات قادة الفكر انما تكون
فى الجوانب التى انفردوا بها ولم يشركهم فيها غيرهم من العباقرة .

قد يبدو هذا الجانب ضئيلا فى حياة الغزالي أو حياة غيره لو كان
له فيه شبيه لا يستحق نصب الدراسة ومتاعب البحث ، ولكن كم من
أمر صغير فى مظهره كان فى حقيقته مصدرا لعظائم الامور ؟؟

وكان الباحثين فى حياة أبى حامد الغزالي - على كثرتهم وثعدد
مشاربهم - شغلوا بأبى حامد العليم المفكر الباحث النظائر ، الحجة
الفيلسوف المتكلم ، الجدلى ، الفقيه الاصولى الصوفى بعلمه وعقله ، انعيم
العقول فى تصوفه ، عن أبى حامد الصوفى بتربيته وبدايته .

ومن العجيب أن أبى حامد نفسه رضى الله عنه أرح لحياته فاطنب
وقضل ولكنه فى هذا التاريخ شغل بعلمه وعقله عن صوفيته فى بداية
تربيته ونشأته ، فبقيت تلك المرحلة مجهولة المعالم فى حياة أبى حامد
رحمه الله تعالى .

والامر ما فى غيب الاقدار عاد أبو حامد - مختارا أو غير مختار -
فى نهايته من حياته الداوية الى ماكان من تقدير الله له فى بدايته الهادئة

شخصية الغزالي التاريخية

وشخصية أبى حامد التاريخية عجيبة من عجائب الابداع الالهى فى
نوع الانسان ذلك لانها شخصية يراها الناس بآدى الرأى أوضح ماتكون
شخصية لشهوتها التى طبقت الافاق ، ولائها العلمية التى ملأت
الارجاء ، ولما امتاز به صاحبها من حدة الذكاء الخارق ، ومن صبر على
مكابدة العقول واقتحام لجج العلوم والمعبارف والافكار فى كافة
الوانهابنهم لايشبع ، وجراة على اقتحام المضائق الفكرية العسيرة ومغامرة
المزالق الفلسفية فى غير تهيب ولا وجل مع قوة عارضة فى الجدول
والمخاجة لم تهزم قط ، حتى اتفقت كلمة مؤرخيه ، انه كان أنظر أهل
زمانه وأوحد أقرانه قائم ثز العيون مثله ولم ير هو مثل نفسه .

يصفه شيخهم المؤسس لشخصيته العلمية الامام أبو المعالي عبد

الملك الجوينى امام الحرمين ، وكان أسستاد عظيمه بلا مدافع بانه « بحر مغلق » ويروى « بحر مغرق » وكلا المعنيين صحيح واقع فى حياة أبى حامد الغزالى .

وكانه امام الحرمين ينبجج به ويفخر بتلمذته له الى أن توج القادر الالهى الحكيم ذلك كله بهذا التنسك الصوفى المتبذل فى محساريب العبودية المشرقة الذى بلغ فيه أبى حامد رضى الله عنه مرتبة من الكشف الروحانى عزيزة المثال - كما يقول - لا يصح البوح بها إن لم يكن من الهامها وهو يكتب فى الأخبار عنها لن لم يدقها بانشاد بيت من الشعر الرمزي يمثل موقف أبى حامد من نفسه فى بهجة اشراق روحه وتفتح قلبه لحقائق الوجود الغيبية ، وموقفه من حياة الناس ودنياهم التى أطرحها وأعرض عنها بعد أن جمعت له زخارفها فى قبضة يده راضيا أكمل الرضا عن صوفيته التى تسامت به فوق مظاهر العلو المادى الدنيوى الذى كان يغمر عصره وكاد يغمره فى عصره .

فكان ما كان مما لست أذكره : فظن خيرا ولا تسأل عن الخير .

هذه الشخصية الواضحة بخصائصها وصفاتها فى بادئ الرأى هى نفسها أغمض ما تكون شخصية فى تحليلها وتعرف حقيقتها ووضعها فى مكانها الصحيح من الحياة .

ومن ثم لا نجد التاريخ يصنع لآبى حامد الغزالى صورة واحدة مستوية المعالم ولكنه يصوره فى صور كثيرة تتجاذبها الآراء والمذاهب .

فشخصيته كانت ولا تزال معترك الاقلام ، وميدانا لاسللات الالسن منذ دوى اسمه فى الاتفاق ، وسارت مؤلفاته مع الشمس حتى بلغت من دنيا العلم والعقل ما قصرت دونه مصنفات العلماء والحكماء .

فهو فى نظر منجبيه المعجبين بعقله وعلمه ، العبقري النظار الذى حطم العقول بقوة عقله . والعالم الاصولى الفقيه المتكلم الذى أرسى قواعد العقائد على دعائم المنطق البرهانى وحماها بسياج الحجة الباهرة والجدلى الذى يقتحم على الخصوم قلاعهم اقتحام مغالبة ليهدم بقوة حجته ما أقاموا من حصون الشبه والباطيل والفيلسوف الذى خنعت له كبرياء الفلاسفة ودانت لعقله عصيات الفلسفة فظهر على أسرارها وكشف عن خبيثاتها وبهرج زيفها ، وحقق من عويس قضايها ما عجز عنه فحولها وجهها بذتها والصوفى الروحانى والحكيم النفسانى الذى تجلت بنور قلبه ، واشراق روحه أسرار الشريعة ونحكم بتشريعها فأبان عنها فن أخينائه بما لم يجر معه فى شوطه جواد من الأئمة والحكماء مما دفع كثيرا من محبيه من أعلام العلماء الى المبالغة والاغراق فى وصف هذا الكتاب الفريد فى

بابه . روى الشيخ عبد القادر العيدروس صاحب التعريف بالاحياء عن الامام النووى - وهى من هو امامة وفضلا ، وعلمنا وزهدا وجهارة بالحق - انه قال : (كاد الاحياء يكون قرآنا) لو كانا قائل هذه الكلمة غير الامام النووى أو لو كان الامام النووى على غير ما يعرفه التاريخ من جلالة القدر فى الاسلام لقلنا انها كلمة شاعرية اكتست ثوبا فضفاضما من مبالغات الشعراء ولكن اذا صحت فانها تدخل فى باب المحبة وباب المحبة واسع الغفران فيغتفر فى المداخل للمحبين مالا يغتفر لسواهم ، وهى أضخم عنوان على مكانة الغزالي فى تاريخ الفكر الاسلامى .

ونحن وان كنا نجل كتاب « احياء علوم الدين » ونعرف له قدره ولا سيما من جهة ما تضمنه من مباحث نفسية وغوص على أسرار الشريعة ببيان ما اشتملت عليه أحكامها من حكم وما فيه من اشراق روحى ، ونوارانية مشرقة فى مباحثه لكننا لا نقر هذه المبالغات مهما كان مصدرها

ولذلك كان الحافظ أبو الفضل العراقى مقاربا اذيقول فى تخريجه لاحاديث الاحياء (انه من أجل كتب الاسلام فى معرفة الحلال والحرام جمع فيه بين ظواهر الاحكام ونزع الى سرائر دقت عن الافهام ، ولم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ولم يتبحر فى اللجة بحيث يتعذر الرجوع الى الساحل بل مزج فيه علمى الظاهر والباطن) ومن المبالغات اللطيفة المقبولة فى وصف هذا الكتاب النفيس ما ذكره التاج السبكى فى الطبقات من قول بعض المحققين :

(لو لم يكن للناس فى الكتب التى صنفها الفقهاء الجامعون فى تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والاثر غيره لكفى) فهذا كلام جميل لانه يذكر خصائص كتاب الاحياء التى امتاز بها على كثير من المؤلفات الاسلامية ، وهى جمعه بين النقل والنظر والفكر والاثر ، ذلك مما امتاز به الغزالي فى كثير من مؤلفاته مما يدل على أنه كان بطبعه فقيه النفس غواصا على المعانى الدقيقة التى تتصل بدخائل النفس البشرية .

ومما يدخل فى هذا اللون فى مدح كتاب الاحياء قول صاحب دائرة المعارف الوجدية من كتاب عنصرنا (هو أفخم أثر اسلامى بعد كتاب الله وسنة رسوله ، وهو أبداع ما وضعه المؤلفون فى الاسلام لم يوضع قبله ولا بعده مثله وهو آية من آيات التأليف وغاية من الغايات التى تقصر عنها الهمم)

ومن أحسن ذلك وأعدلها قول شيوخنا شيخ الاسلام وشيخ الازهر الاساذ الشيخ محمد الحضر بن الحسين التونسى رضى الله عنه (فلا عجب أن يبلغ كتاب الاحياء فى الغوص على أسرار الشريعة والبحث عن

دقائق علم الاخلاق واحوال النفس شاية بعيدة فكتاب الاحياء من صنع عقل نشأ فى قوة ورسخ فى علوم الشريعة وخاص فى العلوم العقلية فوقف على كبيرها وصغيرها وفرق بين سليمها ومعيبها وخلص بعد هذا من كدور الهوى وظلمات الحرص على عرض الدنيا .

واذا وجد العلماء فى كتاب الاحياء ما اخذ معدودة فانه من صنع بشر غير معصوم من الزلل ، وكفى كتاب الاحياء فضلا وسمو منزلة ان تكون درر فوائده فوق ما يتناولوه العدوان يظفر منه طلاب العلم وعشاق الفضيلة بما لا يظفرون به من كتاب غيره) .

هذا كلام مشرق بنور العدل والفضل ، نضجت به قريحة ربها الايمان وزينها العلم وحكمها العقل . (ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا) .

والصوفية قضهم بقضيتهم متوافقون على اجلال ابي حامد رضى الله عنه ووضعه فى مرتبة القطبانية تارة والفوتية اخرى والصديقية مرة فيما هو من اعلام المراقب والمقامات عندهم .

وهم يروون فى شأنه عن اكابر شيوخهم روايات وغرائب ، لا سبيل الى عرضها بالتفصيل فى بحث يقصد الى تصوير شخصية الغزالى المفكر الذى خاض بحار العلوم والمعارف والفنون الفلسفية فى جراءة وجسارة وقوة تعتمد على الاخلاص والبحث العميق ثم خرج منها بعد ان تملى باصولها وفروعها وافاض على عصره من ينابيعها - زاهدا فى عريض جاهها وواسع صيتها .

والصوفية - كثيرهم - فى شأن الغزالى - منهم المقتصد فى كلمه عنه الذى ينظر اليه والى آثاره فى العالم المحقق الذى أضفى على التصوف من عقله وعمله ما قرب منهجه للناس وحببه اليهم وما أكسبه كثيرا من النظر العقلى المبدد لكثير من انشبه الى جوانب خاصة من الاشراق الروحى والصفاء القلبى النابع من فطرة الغزالى حتى جعله فنا من المعارف الكسبية التى تؤخذ من لباب الشريعة والتى يمكن أن ينالها بشمراها كل من جاهد نفسه وصى باطنه من غوائل الكدورات المادية ، وطهرها من رذائل الاخلاق وتسامى بها عن الكون الى دار الغرور وهذا رد للتصوف فى الاسلام الى حقيقته الشرعية كما كان عليه متقدمو المتصوفة فى الاسلام ، فابو زيد البسطامى وهو أحد سادات رجال الرسالة القشيرية التى هى أجل ما ألف فى التصوف يقول (لو نظرتم الى الرجل يطير فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف هو عند الامر والنهى وحفظ الحدود وانقيام بالشريعة) .

وأبو القاسم الجنيد امامهم المقتدى به يقول (الطرق كلها مسدودة على الخلق الا طريق اقتفاء آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلمنا هذا بالكتاب والسنة) .

وأبو حمزة البغدادى امام المتوكلين والزهاد - عندهم - يقول (لا دليل على الطريق الى الله تعالى الا متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وسائر أحواله) .

ويقول أبو سعيد الخراز كل باطن يخالف ظاهرا فهو باطل . والغزالي رضى الله عنه يذكر هذا فى كتبه ولا سيما كتاب « الاحياء » ويكثر من هذه النقول عن أكابر الصوفية ومتقدميهم ليحقق نظريته فى تأخى العلم والعقل مع التصوف فى الاسلام وليرفع الحجب التى ضربها بعض متفلسفى الصوفية حول التصوف حتى جعلوه ألفاظا وطلاسم يترجمون عنها بعبارات جامحة عن محجة العقل لا تخضع لمقاييس الشريعة وموازين العلم .

ومن هؤلاء المقتصدين فى عباراتهم عن الامام الغزالي الاستاذ المحقق العارف الامام أبو العباس المرسى أكبر تلاميذ أبي الحسن الشاذلى : وقد سئل عن الغزالي فقال : انى أشهد له بالصدىقية العظمى .

فأين هذا الكلام الرصين الخارج من خزائن التحقيق من قول بعضهم كما نقله اليافعى « لو كان نبى بعد النبى لكان الغزالي » فما هذا يا أهل الله ؟ والذين يلوذون فى الدفاع عن هذا الكلام بكلمة « لو » انما يباعدون بها فى أقصى جهدهم بين صاحب هذا الكلام وبين الخروج من نطاق الايمان ، ولو لم يكن فى هذه العبارة المغرقة سوى انها تضع الغزالي رحمه الله موضعاً لا يرضاه الغزالي العالم الفقيه لنفسه لكفى فى الحكم عليها انها لا توزن بميزان العقل الشرعى .

ومما يقع بين بين من روايات الاكابر ما رواء ابن السبكي فى الطبقات عن الشيخ العارف امام الصوفية فى عصره أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم وقد باهى موسى وعيسى عليهما السلام بالامام الغزالي وقال لهما أفى أمتكما مثل هذا ؟ قالا : لا ، ومخرج هذا ونحوه فى نظرنا - اجلال الحب وتعظيم المحبين .

وهذا اللون كثير جدا فى ترجمة أبى حامد الغزالي مبثوث فى كتب الطبقات وتاريخ الرجال يتناوله مريدوه وعاشقوه مذهبه من المتصوفة والمتكلمين ، ونحن لم نورد بعضه الا على سبيل الشاهد لما أحتف بسيرة الغزالي من أقاويل .

وبحسبك ما تقرأ من كلامهم من طبقات ابن السبكي ، والمناوي
والسمعاني وابن عساكر وابن النجار والحنبلي ، والفتح البغدادي
وعبد الغافر الفارسي والشـعراني وغيرهم ممن لا يحصون كثرة
فأبو حامد عند محبيه تصور شخصيته كلمة تلميذه محمد بن يحيى التي
يقول فيها « الغزالي لا يعرف فضله الا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في
عقله » كما يصورها تعقيب التاج السبكي على هذه الكلمة فيقول « يعجبني
هذا الكلام فان الذي يجب ان يطلع على منزلة من هو أعلى منه في العلم
يحتاج الى العقل والفهم ، ولما كان علم الغزالي في الغاية القصوى احتاج
من يريد الاطلاع على مقداره أن يكون هو تام العقل وأقول : لا بد مع
تمام العقل من مداناة مرتبته في العلم لمرتبة الآخر ، وحينئذ فلا يعرف
أحد بناء بعد الغزالي قدر الغزالي ولا مقدار علم الغزالي اذ لم يجيء
بعده مثله » .

وهذا الكلام لا يعجبنا من التاج السبكي ، لانه اذا أصبح في بعض
مقدماته فهو غير سليم في انتاجه لان قوله وحينئذ فلا يعرف احد جاء بعد
الغزالي قدر الغزالي ولا مقدار علم الغزالي اذ لم يجيء بعده مثله فاق كل
مبالغه وجاوز الدقة في التعبير الى الاغراق والتوسع الفضفاض وخرج
الى التحجير على فضل الله اذ ليس في الدنيا بشر يجوز أن يقال في حق
انه لم يجيء بعده مثله سوى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم
وكلام ابن السبكي حكم على الامة الاسلامية بالعقم وهي أمة متصلة المدد
لا ينقطع عنها النبوغ ولا ينضب في معيها نحير العبقرية وغفر الله للمحبين
جميعات الاقلام .

أما منتقصو ابى حامد رحمه الله تعالى فاکثرهم من الفقهاء والمحدثين فكما
حمل الحب المحبين على المبالغة والاغراق في مدح ابى حامد والثناء عليه
حمل الشائئين الشنآن على المبالغة في التنقيص والعييب ، وقد كان أبو حامد
نفسه شديدا على الفقهاء والمحدثين يتناولهم بقلمه ولاذع عباراته ويتنقص
دينهم واخلاصهم ويعيب عليهم كثرة تفريعاتهم لمسائل الفقه وكثرة روايه
الحديث وتكائبهم على مظاهر الدنيا ومناصبها وصيبتها ، فدفع ذلك فريقتا
منهم الى أن يقسو عليه ويتنقصه ويتتبع كلامه ، يتصيد منه العثرات
حتى رماه بعضهم بأنه كاد ينسلخ من الدين ، وبأنه طوى بصوفيته بساط
الشريعه كما يقول ابو الفرج ابن الجوزي في كتابه « نقد العلم والعلماء »
المشهور باسم « تلبيس إبليس » وكما صرح به ابن القيم في تعقيبه على ما
ورده أبو حامد من خكايات وأحوال لبعض مشيخة وأحوال الصوفية
وأكابرهم ونكتفى بذكر هذا المثل شاهدا على ذلك فقد ذكر أبو حامد انه

ضاع لبعض الصوفية واند صغير فليل له : لو سألت الله تعالى أن يردك عليك ؟ فقال اعتراضى عليه أشد على من ذهب ولدى •

قال ابن القيم • لقد طال تعجبي من أبى حامد هذا كيف يحكى هذه الحكايات على وجه الاستحسان لها والرضا عن أصحابها ويعد الدعاء والسؤال لله تعالى اعتراضا ؟ لقد طوى بساط الشريعة طيا اذ الدعاء مشروع بالاجماع ، وعلى هذا الغرار جرى ابن القيم وأكثر جدا من هذا اللون فى النقد

أما مشيخة الامام أبو العباس بن تيمية ، فقد نقد الغزالي نقدا علميا وانصفة فى نقده وكان أقوم قيلا واحسن تأويلا لكلام الغزالي وقد انتهى معه بحسن الظن فيه وقال انه عكف فى آخر حياته على قراءة البخارى ومسلم وغيرهما من كتب السنة •

وعبارته فى كتابه (جواب أهل الايمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن من أن •

قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ولكن أبو حامد يجعل الحجاج صنعة الكلام ويجعل عمارة الطريق علم الفقه ، ويجعل أخبار الانبياء علم القصص ، ويقول : ان الكلام والجدل ليس فيه بيان حق بدليل ، بل انما فيه دفع البدع ببيان تناقضها ويجعل أهله من جنس خفراء الحجيج ويجعل علم الفقه ليس غايته الا مصلحة الدنيا ، وهذا مما نازعه فيه أكثر الناس ، وتكلموا فيه • كما تكلموا على ما ذكره فى هذا الكتاب (جواهر القرآن) وغيره من كتبه من معانى الفلسفة وجعل ذلك هو باطن القرآن وكلام علماء المسلمين على رد هذا أكثر من كلامهم على رد ذلك فان هذا فيه مما ينقض مقصود الرسول أمور عظيمة كما تكلموا على ما ذكره فى النبوة بما يشبه كلام الفلاسفة فيها ••• ثم قال بعد أن بين أن قول الغزالي فى قل هو الله أحد أحسن من قول كثير من الناس فيها وأنه اقرب الى الصواب : واما جعله علم الفقه خارجا عن الصراط المستقيم والعمل الصالح وجعل علم الادلة والحجج خارجا عن الايمان والمعرفة بالله واليوم الآخر فهذا مردود عند جماهير السلف والخلف ، وابو حامد انما ذكره هذا لانه يقول انه انما يعرف معانى ذلك بطريق التصفية فقط لا بطريق الخبر النبوى ، ولا بطريق النظر الاستدلالي فلا يعرف ذلك بالسمع ولا بالعقل وهذا مما انكره عليه الناس وصنفوا كتبنا فى رد ذلك كما فعل جماعات العلماء ولكن عذر أبى حامد أنه لم يجد فيما علمه من طريق الفلاسفة وأهل الكلام ما يبين الحق فى ذلك ولم يعلم طرقا عقلية غير ذلك فنفى ان يعلم بطريق النظر فيه •

واما الطريق الخيرية النبوية فلم يكن له خبرة بما صح من الفاظ الرسول وبطريق دلالة الفاظه على مقاصده ، وظن بما شارك به بعض اهل الكلام والفلسفة ان الرسول لم يبين مراده بالفاظه ، فتركب من هذا وهذا سد باب الطريق العقلي والسمعي وظن ان المطلوب يحصل بطريق التصفية واعمل ففسلك ذلك فلم يحصل له المقصود ايضا فرجع في آخر عمره الى قراءة البخارى ومسلم .

وقد تتبع المنكرون عى ابي حامد تأليفه بالنقد واحصوا عليه كلمات موهمة مستتبهه وتعلقوا بها عليه وقد انتهض ابو حامد نفسه للاجابة عن كثير من اعتراضات المعترضين ونقد الناقدين ، وتصدى تلاميذه ومريده للاجابة عنها بما يدفعها عنه أو يدفع ما تحتمله من ايها ، واملى ابو حامد فى اجابته عن ذلك كتيباً سماه جلال الدين السيوطى فى الجزء التاسع عشر من تذكرته «الانتصار لما فى الاحياء من الاسرار» وسماه بعض العلماء «الاملاء فى اشكالات الاحياء» وسماه آخرون «الاجوبة السمسكنة عن الاسئلة المبهمة» وهو كتاب واحد وقد جاء فى مقدمته : (سألت بركة الله لمراتب العلم تصعد مراتبها وقرب لك مقامات الولاية تحل معانيها فى بعض ما وقع فى الاملاء الملقب بالاحياء مما أشكل على من حجب فهمه وقصر علمه وتم يقر بشيء من الحظوظ الملكية قدسه وسهمه وأظهرت التحزن لمانساته به شركاء الطعام وأمثال الانعام وجماع العوام سفهاء الاحلام وذعار أهل الاسلام حتى طعنوا عليه ونهوا عن قراءته ومطالعته وافتوا بمجرد الهوى باطراحه ومنابدته ونسبوا مملية الى ضلال واضلال ونبدوا قراءه ومنتحلبيه بزيغ فى الشريعة واختلال ، فالى الله ، انصرفهم وما بهم وعليه فى العرض الاكبر ايقافهم وحسابهم ، فستكتب شهادتهم ويسألون ، وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون ، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه . . . الخ وهذه الاسماء الثلاثة اسم لكتاب واحد وقد قصدنا بهذا التنبيه لمن عسى أن يقع نظره على فهرست مؤلفات الغزالي فيظن انها كتباً متعددة وهى اسماء لمسمى واحد ، ونظن ان الغزالي سماه الاملاء فى اشكالات الاحياء وهى تسمية معهودة عند المتقدمين مأخوذة من طريقة تأليفهم . والغزالي نفسه يسمى كثيراً من كتبه بالاملاء وقد أطلق فى هذا الكتيب نفسه على أشهر كتبه وهو كتاب الاحياء مع اتساعه وضخامته الاملاء الملقب بالاحياء كما نظن ان التسميتين الاخرين من وضع تلاميذه ومريديه .

وكان اظهر من نقد الغزالي وأشد هم عبارة فى حقه الامامان ابو عبد الله المازرى الفقيه المالكي المغربي وابو بكر الطرطوشى وقد ساق ابن السبكي فى الطبقات كلامهما ورد عليه بما رآه ، ونحن نقبس مما ذكره ابن السبكي ما ترى انه يدخل فى بحثنا ويتسق مع رأينا .

قال الامام أبو عبد الله المازرى المالكي . مجيباً لمن سألته عن حال

كتاب أحياء علوم الدين ومصنفه ، هذا الرجل - يعنى الغزالي ، وان لم أكن قرأت كتابه فقد رأيت تلامذته وأصحابه فكل منهم يحكى لى نوعا من خاله وطريقته فتلوح من مذهبه وسيرته ما قام لى مقام العيان . فأننا اقتصر على ذكر حماد الرجل وحال كتابه . فان كتابه متردد بين هذه والفلاسفة والمتصوفة واصحاب الاشعارات فان كتابه متردد بين هذه الطرائق لا يعدوها وهو أعرف بالفقه منه بأصوله ، وأما على الكلام الذى هو أصول الدين فإنه صنف فيه أيضا وليس هو بالمستبحر فيها ولقد فطنت لعدم استبحاره وذلك أنه قرأ الفلسفة قبل استبحاره فى فن اصول الدين فأكسبته قراءة الفلسفة جرأة على المعانى وتسهيلا للهجوم على الحقائق لان الفلاسفة تمر مع خواطرها ، وليس لها حكم شرعى ترعاه ولا تخاف من مخالفة أئمة تتبعتها .

وقد أطلال التاج ابن السبكي فى الرد على المازرى وجعل محور رده تعصب المازرى لمذهبه فى اصول الدين والعقيدة وهو أشعرى ، وفى الفقه وهو مالكي والغزالي أمام متحرر وهو ان كان يأخذ بمذهب بلاشعرى فى اصول الدين والعقيدة لكنه (وصل من التحقيق وسعة الدائرة فى العلم الى المبلغ الذى يعرف كل منصف بأنه ما انتهى اليه أحد بعده وربما خالف ابا الحسن الاشعرى فى مسائل من علم الكلام ، والاشاعرة وخاصة علماء الغاربه منهم يستصعبون هذا الصنع ولا يرون مخالفة الاشعرى فى كثير لا قليل وكذلك ربما ضعف الغزالي مذهب مالك فى بعض المسائل كما صنع فى المصالح المرسله) .

ثم أخذ ابن السبكي فى تزييف كلام المازرى تفصيلا متتبعا جزئياته بما لا يخلو من التحامل والعصبية المذهبية .

والحق ان كلام المازرى فى الغزالي كان يكفى فى رده انه كلام مسن سمع ولم يرفهه باعترافه لم يقرأ كتب الغزالي ولكنه رأى تلامذته وأصحابه وسمع منهم أنواعا من حالة وطريقته تلوح بها من مذهبه وسيرته ما قام له مقام العيان ، ولهذا كان أمثل ما اشتمل عليه رد التاج السبكي قوله : ان ما ادعاه المازرى من انه عرف مذهبه بحيث قام له مقام العيان هو كلام عجيب ، فانا لا نستجيز ان نحكم على عقيدة أحد بهذا الحكم ، فان ذلك لا يطلع عليه ألا الله ، ولن تنتهى اليه القوانين والاخبار أبدا قلنا : وخاصة اذا كان مصدر ذلك مجرد السماع - قال ابن السبكي : وقد وقفنا نحن على غالب كلام الغزالي وتأملنا كتب أصحابه الذين شاهدوه وتناقلوا أخباره وهم أعرف به من المازرى ، ثم لم تنته الى اكثر من غلبة الظن بأنه رجل أشعرى المعتقد ، خاض فى كلام الصوفية .

وهذا نهج في نقد افكار الرجال لا يرتضيه المنهج ونهج في وزن الرجال لا يرجع في ميزان العدل وما كان ينبغي للامام المازري ان يحكم على مثل الغزالي بهذه الاحكام القاسية بمجرد سماع ما يحكيه عن احواله تلامذته واصحابه ، ثم نتساءل من هم أولئك التلامذة والاصحاب الذين سمع منهم الامام المازني ما تلوح به من مذهب الغزالي وسيرته ما فام له مقام العيان ؟ أهم من المغاربة أم من المشاركة ومحنة كتب الغزالي بين المغاربة مشهورة واصحابه الذين حكوا للمازري حاله وسيرته ؟ هل كان لهذه المحنة أثر عليهم ؟ أو كان لهذه المحنة أثر على تصور المازوزي للغزالي وكتبه وافكاره من خلال سجوفها ؟

والامام المازري كان من المكانة العلمية والذكاء البعقري والتحصيل العلمي مما جعل ابن السبكي يقول عنه انه كان زكنازكيا أذكى المغاربة قريجة واحدهم ذهنا بحيث اجتراً على شرح البرهان لاهام الحرميين وهو لغز الآمه الذي لا يحوم نحو حماه ولا يدندن حول مغزاه الا غواص على المعاني ثاقب الذهن مبرز في العلم .

وكانت كتب الغزالي . خصوصا الاحياء منتشرة في العالم الاسلامي متعالة لعامة الناس وخاصتهم لو أرادها الامام المازري لينظر فيها تحقيقا لما سمعه لكانت بين يديه ، ولكن هكذا جرت الاقدار بين الرجلين والله تعالى يجعلهما ممن قال فيهم في محكم كتابه ونزعنا ما في صدورهم من عل اخوانا على سرر متقابلين) .

وأما الامام أبو بكر الطرطوشي فقد جرى في نقده للغزالي على نهج الفقهاء والمحدثين الذين ينفرون من طرائق المتكلمين واهل النظر العقلي كما ينفرون من مسلك الصوفية وهذان هما طريقة الغزالي في تفكيره وسلوكه لكن الطرطوشي كان انصف للغزالي من المازري ، وكلامه جدير بالنظر لانه اجتمع به وبأخته وعرف فضله وقدره العلمي ومكانته الفكرية

رد ابن السبكي في الطبقات ان الطرطوشي ذكر في رسالته الى ابن مظفر : (فأما ما ذكرت من امر الغزالي فرأيت الرجل وكلمته ، فرأيت رجلا من أهل العلم قد نهضت به فضائله واجتمع فيه العقل والفهم وممارسة العلوم طول زمانه ثم بداله الانصراف عن طريق العلماء ودخل في غمار العمـال ، ثم تصوف فهجر العلوم وأهلها ودخل في علوم الخواطر وارباب القلوب ووساوس الشيطان ثم شابها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين ولقد كاد ينسلخ من الدين ، فلما عمل الاحياء عمديتكلم في علوم الاحوال ومرامز الصوفية وكان غير انيس بها ولا خبير بمعرفتها فسقط على أم رأسه وشحن كتابه بالموضوعات) وقد رد ابن السبكي على الطرطوشي ردا متحاملا لم ينصفه

فيه وهو من اعلام العلماء وصالحى الامة ، وهو قد انصف الغزالي ولم يعب عليه الا ما عابه عليه كثير من الفقهاء والمحدثين من تركه طريقة الفقه وهو علم الشريعة مع استبحاره فى علومها الى طريقه المتصوفه التى لا تقوم فى نظر المتشرعين الا على المكاشفات التى لا تؤمن بعواقيها ولا يمكن التحرز من مزالقها وهذا ما عناء الطرطوشى بقوله فى الغزالي فهجر العلوم وأهلها ودخل فى علوم الخواطر وأرباب القلوب ووساوس الشيطان .

وبين هؤلاء وهؤلاء من المحبين والشائئين فريق نظر الى أبى حامد رحمه الله نظرة الى امام من قادة الفكر فى الاسلام خاض بختار العسوس والمعارف بحثا وراء الحقيقة فصورها بقلمه ولسانه كما تصورهما بعقله واطهرها للناس فى كتبه ومؤلفاته ومجالس املائه ومدارساته كما رآها ببصيرته .

ومن هذا الفريق من استشعر فى نفسه اجلال أبى حامد رحمه الله فاستعظم انكار المنكرين ، ونهض مشمرا يدفع نقد الناقدين ويرد اعتراس المعترضين فى نون من الحماسة التى قد تغضى على العثرات وقد تدفع الى التحمل فى تخريج ما عسى ان يكون هناك من زلات .

ويمثل هذا الفريق فيلسوف الصوفية وامام متأخريهم ابن عربى الحاتمي والمشيخة عبد الكريم الجبلى ، والشعرانى ، والسهمودى ؛ والسيوطى والتاج السبكى .

ومنهم من رأى أن أبى حامد وان كان فى جلالة قدره بالمعدل المرموق فحلبت الفكر ومبادئ العلم ، لكنه انسان يجوز عليه ما يجوز على غيره من العلماء والائمة من الخطأ مع اعتقاد حسن النية فى عقيدته وبأنه الجهد مخلصا فى سبيل الوصول الى الحقيقة التى ينشدها عن طريق البصيرة والحق عندهم أعظم من أقدار الرجال وأبو حامد نفسه ينادى بهذا المبدأ فى التحرر الفكرى فهو يقول فى كتاب (معيار العلم) وكتاب (المنقذ من الضلال) « ر » ضعفاء العقول يعرفون الحق بالرجال . لا الرجال بالحق والعاقل يقتدى بقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله . »

ويمثل هؤلاء الناقدين لآبى حامد مع الاعتراف بفضله تلميذه القاضى أبو بكر بن العربى فقد نقد شيخه أبى حامد فى قولته المشهورة « ليس فى الامكان أبدع مما كان » مع تعظيمه له فقال : (قال شيخنا أبو حامد الغزالي قولا عظيماً أنتقدته عليه أهل العراق وهمو بشهادة الله موضع انتقاد ، قال : ليس فى القدرة أبدع من هذا العالم فى الاتقان والحكمة ولو كان فى القدرة أبدع منه وأدخره لكان ذلك منافيا للوجود) ثم قال

ابن العربي : ونحن وان كنا قطرة في بحر فانا لا نرد عليه الا بقوله . .
فسيحان من أكمل لشيخنا هذا فواضل الخلائق ثم صرف به عن هذه
الواضحة في الطرائق .

والامام ابن العربي كان شديد التعظيم لشيخه ابي حامد عارفا
لقدره بصيرا برسوخ قدمه في العلوم والمعارف ، يقول في كتابه « قانون
التأويل » ورد علينا (أى فى بغداد) ذانשמند (يعنى الغزالي) فنزل فى
رباط ابي سعد بازاء المدرسة النظامية . معرضا عن الدنيا ، مقبلا على
الله تعالى ؛ فمشينا اليه وعرضنا أمنيئتنا عليه وقلنا له : أنت ضالتنا
التي كنا ننشد ؛ وامامنا الذي به نسترشد فلقينا لقاء المعرفة وشاهدنا
منه ما كان فوق الصفة (١) .

وقال فى كتاب (العواصم) عند تعرضه للحديث عن الفلاسفة ورد
مذاهبهم الفلسفية فانتدب للرد عليهم بلغتهم ومكافحتهم بأسلحتهم والنقض
عليهم بأدلتهم ابي حامد الغزالي رحمه الله ، فأجاد فيما أفاد ؛ وأبدع فى ذلك
كما اراه الله واراد وبلغ من فضيحتهم المراد فأفسد قولهم وذبحهم بمذاهم
فكان من جيد ما أثناء ومن احسن ما رواه ورآه وأفرد عليهم فيما يختصون
به دون مشاركة أهل البدع كتابا سماه (تهافت الفلاسفة) ظهرت فيه
منته ؛ ووضحت فى درج المعارف مرتبته .

وقد تكررت هذه الكلمة التي أخذت على الغزالي فى عديد من مؤلفاته
بعبارات متقاربة الانفاظ موحدة المعنى فقد جاءت فى كتاب « التوكل »
عند الحديث عما يثمر « التوكل » فانه قال : (كل ما خلقه الله من السموات
والارض أن امعنوا فيه البصر وطولوا فيه النظر لما رأوا فيه من تفاوت
ولا فطور ، وكل ما قسمه الله بين عباده من رزق وأجل ، وسرور وفرح ،
وحزن وعجز ، وقدرة وإيمان ، وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل لا جور
فيه ، وحق صرف لا ظلم فيه ، وليس فى الامكان أصلا اثم منه ولا احسن
ولا أكمل ولو كان . وأدخره مع القدرة ولم يفعله لكان بخلا يناقض
الجود وظلما يناقض العدل ، ولو لم يكن قادرا لكان عاجزا والعجز ينافى
الالهية .

وقال أيضا فى الاجوبة المسكنة مصورا لاعتراض المعارض عليه فى
هذه الكلمة « وما معنى بأن ليس فى الامكان أبدع من صنورة هذا العالم
ولا أحسن ترتيبا ولا أكمل صنعا ولو كان وأدخره مع القدرة عليه .
كان ذلك بخلا يناقض الجود وعجزا يناقض القدرة الالهية .

وتكرار هذه العبارة فى أكثر من كتاب من مؤلفات الغزالي ، ونقد

(١) الاسناد الامام محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر فى مقدمة إحدى طبعات الأحياء

تلميذه ابن العربي لها ، وادخال الغزالي نفسه لها فى اشكالات «الاحياء» وتكلفه الاجابة عنها يرد على من زعموا - دفاعا عن ابى حامد - انكار صدور مثل هذا القول منه وانه مذبذب عليه محتجين بأن مؤدى هذه العبارة لا يتمشى الا على أصول الفلاسفة والمعتزلة وأبو حامد رحمه الله قد رد على هؤلاء وهؤلاء أصولهم فى الجود والفيض والصلاح والاصلاح ومؤلفاته طافحة بهذه الردود ، وفى كتابى «تهاوت الفلاسفة» و«مقاصد الفلاسفة» رد على مذاهب الفلاسفة ، وفى كتب «الاحياء» و«الاقتصاد فى الاعتقاد» و«القسطاس المستقيم» و«المستطفى» رد على المعتزلة ونقص أصولهم فى الحسن والقبح والصلاح والاصلاح ، فلا يعقل أن يتناقض مع نفسه ويقول هذه العبارة التى لا تتفق مع رده على الطائفتين.

الغزالي بين السياسة والمنافسة

وقد كان علماء المغرب من الاندلسيين والافريقيين من أشد ناقدى الغزالي والمنكرين عليه فقد حرقوا كتبه ، وأغروا بها العامة وأفتوا الملوك والامراء وذوى السلطان فى أقطارهم وأغروهم بوجوب حرقها وأعدامها ، وتولى كبر ذلك القاضى أبو القاسم بن محمد بن قاضى الدولة التاشفينية فى عهد أميرها «على بن يوسف بن تاشفين» وكان هذا الأمير كآبيه من قبله لا يخرج فى سياسته وأحكامه عن رأى الفقهاء الذين كانوا أهل الشورى فى الدولة فالدولة لا تقطع أمرا دون رأيهم وفتاواهم ، وكان هؤلاء الفقهاء على مذهب السلف فى الأصول والعقائد وعلى مذهب مالك بن أنس فى الفروع وأحكام الحوادث فلما صلت الى أيديهم كتب أبى حامد وخاصة كتاب الاحياء رأوا فيها مخالفة لما ألفوه وجروا عليه فأقاموا النكير عليها وعلى مؤلفها وعدوه مبتدعا وعدوا كتبه • بدعة فى الاسلام ، وكتبوا بذلك خطوطهم ورفعوها الى أمير المسلمين ، يطلبون اليه اعلان تحريم قراءة هذه الكتب ووجوب أعدامها ، ومعاقبة من يحتفظ بها لما فيها من بدع المتكلمين وضلالات الفلاسفة ولما تحويه من تنقيص العلماء والفقهاء وشتيمهم وتنفير العامة من متابعتهم والخط من شأنهم وشأن علومهم ، وهذا - فى واقع الحقيقة هو السبب الاهم فى تحريك هذه الفتنة فقد كان أبو حامد شديد النكير على الفقهاء والقضاة •

وعارض هذا الاجماع فقيه فامر أبو الفضل بن محمد الحاوى المشهور بابن النحوى فى جمع قليل من تلاميذه ومحبيه الذين أبوا ان يشاركوا أولئك الفقهاء فى هذه الثورة على الغزالي ومؤلفاته ، وكان ابن النحوى محبا للغزالي وكتبه كثير النظر فيها انيسا بها وجعل من كتاب الاحياء

كتاباه المفضل في القراءة والاقراء . يقول أبو الحسن علي بن حرزهم لما وصل الى فاس كتاب أمير المسلمين علي بن يوسف بالتحريج على كتاب الاحياء وان يحلف الناس بالايمان المغنطة ان كتاب الاحياء ليس عندهم ذهب الى أبي الفضل أستفتيه في تلك الايمان فافتانني بأنها لا تنزم وكانت الى جنبه فقال لي : هذه الاسفار من كتاب الاحياء ووددت اني ام أنظر في عمري سواها (١) .

وتروى حكاية عن أبي الحسن بن حرزهم هذا يرويها ابن السبكي في الطبقات وغيره وتتضمن ان ابن حرزهم كان من أشد المنكرين على كتاب الاحياء وكان يقول انه بدعة مخالف للسنة وانه هو الذي طلب الى السلطان جمع نسخ الاحياء واجتمع الفقهاء ونظروا فيه ثم اجتمعوا على احراقه وكان ذلك يوم الخميس ، فلما امسى ابن حرزهم من ليلة الجمعة رأى في منامه النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر رضى الله عنهما جلوسا والامام ابو حامد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم وكتاب الاحياء بيده فقال يا رسول الله هذا خصمي مشيرا الى ابن حرزهم ثم ناول رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الاحياء وقال : يا رسول الله أنظر فيه فان كان بدعة مخالفا لسنة كما زعم تبث الى الله تعالى وان كان شيئا تستحسنه حصل لي من بركتك فانصفني من خصمي .

وتقول الرواية في تكميل هذه القصة ان النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه استحسنوه وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بتجريد ابن حرزهم وضربه حد المفتري فضرب خمسة أسواط ثم شفع فيه أبو بكر رضى الله عنه وقال : يا رسول الله انما حصل ذلك منه اجتهدا في سنتك وتعظيما فعفا عنه أبو حامد عند ذلك ، فلما أصبح ابن حرزهم وجد أثر السياط على ظهره وهو يتألم يقول ابن السبكي : وصار ينظر في كتاب الاحياء ويعظمه ويبجله وهذه حكاية صحيحة حكاها شيخنا الكبير ولي الله تعالى أبو العباس المرسى عن شيخه الشيخ الكبير ولي الله أبي الحسن الشاذلي .

هذه قصة قد يكون الخيال لعب دورا في نسخها من خيول الحب لهذا الامام نذكرها من قبيل سابقاتها في الدلالة على تعظيم الغزالي ومكانته في نظر محبيه ، فهل كان ابن حرزهم منكرا على الغزالي في أول أمره تأثرا بمألوف فقهاء بلاده من التمسك بمذهب السلف من عدم تاويل النصوص والوقوف عند ظواهرها في العقائد ثم عاد اليه بالتعظيم والقبول لمذهبه وآرائه بعد هذه الرؤيا اذا صحت الرواية بها ؟ وان الشيخ ابن حرزهم كان على منوال ابن النحوي في معارضة القائمين ضد الغزالي وكان له فضل ومذهبه وآرائه ، فأستأنس بآئين النحوي ينفي به في جانب

(١) مقال الغزالي والضرب للاستاذ محمد المنتصر الكيماني بمجلة منبر الاسلام

المعارضة كما تقول الرواية التاريخية السابقة ؟ ترجع هذا على رغم تصحيح ابن السبكي الرؤيا بالحكاية .
بـ

بيد أن معارضة ابن النجوى في شجاعته لم تكن لتقوى على الوقوف في وجه ثورة الفقهاء الذين استطاعوا أن يضموا اليهم عامة الناس واغمار طلبة العلم من تلاميذهم - الى جانب ما كان للفقهاء من مكانة في دولة المرابطين باعتبارهم أهل شوارها مما يشكل خطرا ثوريا على الدولة باسم الدين وهو أمر مرعب ، تخافه الدولة ولا تستطيع مقاومته ، لان الدين كان اذ ذاك هو الاساس الدستوري في قيام الدولة ، ولحمايته من الاتحاد والبدع والنزعات المنحرفة تحيا وتنهض وعلى قواعده يقوم بنيانها وتستقر دعائمها .

فلم يكن بد من أن يستجيب أمير المسلمين (على بن يوسف بن تاشفين) لصيحة الفقهاء فأمر بالبحث عن كتاب الاحياء وغيره من مؤلفات الغزالي وشدد على الناس في التفتيش والتنقيب وكتب الى سائر البلدان في مملكته وأغلظ على العامة والخاصة بالايان المغلظة حتى جمع من نسخ الاحياء الثمينة الكثير من بلاد الاندلس والمغرب الأقصى ووضع ما جمع من الاندلسيين في صحن جامع قرطبة وما جمع من بلاد مراكش في صحن مسجدها الجامع وهكذا في سائر الاقطار المغربية واشعلت فيها النيران هذا وهناك .

اتر ذلك أثرا عظيما في نفس ابي حامد الغزالي ؟ بلغة وهو في بغداد ، فتأسف وحزن - حزنا أدمى قلبه ، فكان يدعو على دولة التاشفينيين بأن يمزق الله ملكهم كما مزقوا كتابه الذي يعتز به اعتزازا لم يعتزه بكتاب مثله في كثرة مؤلفاته وغزارتها وجلالة قدرها لانه الاحياء كانه يحتوى على عناصر النيرة الكامنة في نفس الغزالي على عصره الذي قسى فيه من المتاعب على ايدي زعماء الفرق وأرباب النحل وثقلبات السياسة في دول الاسلام مع قعود الفقهاء وأئمة الدين عن الدفاع واطهار الحق والرد على الملاحدة والمبتذعة وجربهم وراء المناصب التي تفريهم من أهل الدنيا .

روى ابن القطان في كتابه (نظام الجمان فيما سلف من أخبار الزمان) عن عبد الله بن عبد الرحمن شيوخ مسن من سكان فاس . قال كنت ببغداد بمدرسة أبي حامد الغزالي ، فجاء رجل كثر اللحية على رأسه « كرزى » صوف فدخل المدرسة وحيها بركعتين ثم أقبل على الشيخ أبي حامد فسلم عليه فقال الغزالي ممن الرجل ؟

قال الرجل : من أهل المغرب الأقصى .

قال الغزالي : دخلت قرطبة ؟

قال الرجل : نعم .

قال الغزالي : ما فعل فقهاؤنا

قال الرجل : بخير .

قال الغزالي : هل بلغهم الاحياء .

قال الرجل : نعم .

قال الغزالي : فما فعلوا فيه ؟

فصمت الرجل ولم يجب فعزم عليه الغزالي ليقولن ما طرا ، فأخبره بأخراجه وقصر عليه ما جرى في شأنه ، فتغير وجه الغزالي ، ومد يده بالدعاء والطلبية يؤمنون فقال اللهم مزق ملكهم كما مزقوه واذهب دولتهم كما حرقوه

قال راوى هذا الحديث : فقام محمد بن تومرت السوسى المصمودى وكن من أخصاء تلاميذ الغزالي ومريديه ، لازمه ثلاث سنين وأخذ عنه الاصول والعقائد ، وطريقته فى التربية والسلوك ، وقال : ايها الامام ادع الله ان يجعل ذلك على يدى فقال الغزالي : اخرج سيجعل الله ذلك على يدك .

وتقول الرواية متوافقة مع واقع التاريخ فى الاحداث التى جرت بعد ذلك على دولة المرابطين ، ان الله تعالى قبل دعاء الغزالي رضى الله عنه وخرج محمد بن تومرت الذى لقب فيما بعد بالمهدى متوجها الى بلاده المغرب آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، متحملا فى سبيل دعوته أشد الايمان ، سامعا محتسبا على قدر الزهد والورع ، لايبالى الدنيا اوقعت فى يده ام تحب قذمه ، قوالا بالحق غير هيب ؛ وكان قد طوف فى بلاد الاسلام طالبا للعلم داعيا الى الله ، وحج واشتد نكيره على الناس فى مكة ، فأخرجوه منها وذهب الى مصر ثم الى الاسكندرية فلم يطب له مقام فيهما ، فركب البحر الى المغرب ونزل بالمهدية فلم يقر له فيها قرار ورحل الى (بجاية) وهناك فى مجالس الوعظ والتدريس تعرف على صاحبه وشريكه فى تأسيس دولة الموحدين (عبد المؤمن بن علي) الذى كان أول ملوكها فأعجب كل منهما بصاحبه وكشف له عن خبيثته ذاته فتوافقا على العمل والتدبير فى ازالة دولة المرابطين « التاشفينية » ، وأظهر ابن تومرت مذهب الاشاعرة فى العقائد والرد على المبتدعة بجنس حججهم وعلى طريقتهم وأسلوبهم وتأويل نصوص التشابه وآيات الصفات كما صنع شيخه واستاذه أبو حامد الغزالي فى مؤلفاته ومجائس مناظراته ومحافل دروسه قال ابن ابى زرع (ان المهدى رحل الى الشرق فى طلب العلم ونبغ فى علم الاصول والاعتقادات وكان من جملة من لقي من العلماء الشيخ أبو حامد الغزالي .

وقد كان أبو حامد رحمه الله فى طليعة علماء المشاركة الذين انتوا (يوسف بن تاشفين) أمير المرابطين ووالد (علي بن يوسف) الذى حرق

الاحياء في عهده بوجوب خلع ملوك الطوائف الاندلسيين الذين استشرى الفساد على ايديهم وتخاذلوا أمام أعداء الاسلام واتسعت الخلافات بينهم واذلوا المسلمين وظلموا الخاصة والعامة وبغوا في الارض بغير الحق ، ومزقوا دولة الاسلام العظمى في هذا الجانب من أرض الله وتقاسموا دويلات هزيلة يحارب بعضهم بعضا والعدو متربص بهم ، يغرى في صدورهم الأحقاد ويوقد نيرانه التحاسد والبغضاء بينهم ، حتى كان أحدهم لا يبالي أن يستعين بأعداء الاسلام من طغاة الصليبيين على منافسيه من ضعفاء الملوك والامراء ، يقول العلامة ابن خلدون (وأفتى يوسف بن تاشفين الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والاندلس بخلعهم وانتزاع الامر من ايديهم وسارت بذلك فتاوى أهل المشرق الاعلام مثل الغزالي والطرطوشي وغيرهما) .

فاستجاب (ابن تاشفين) للغزالي ومن وافقه من الاعلام ودخل الاندلس بجحافلهم وتجمع لحربه ومقاومته أولئك الملوك الضعاف واستنجدوا على قتاله بالصليبيين واليهود من أعداء الاسلام فهزمهم الله أمامه شر هزيمة واستعاد (ابن تاشفين) وحدة الدولة الاسلامية في الاندلس والمغرب تحت لوائه : وقد تجاوزت آفاق الاسلام بهذه الانتصارات الباهرة وذاعت انبأها في المشرق فدعز لها العلماء والائمة وكان أشدهم فرحا بها واعجابا بأبطالها الامام أبو حامد الغزالي فآلهمه الله أن يتخذ من هذه الانتصارات وسيلة لوحدة الامة الاسلامية في المشرق والمغرب تحت راية الخلافة في بغداد بعد أن مزقتها الاهواء الى مجموعة من الدويلات مشتتة هنا وهناك مما أطمع فيها أعداء الاسلام الواقفين له بالمرصاد ، يبغونه الغوائل ويقتصون من أطراف دوله وممالكه قطعة وراء قطعة حتى انحصر ملك الاسلام في رقعة من الارض يحوطها الخطر من كل جانب .

فكر الغزالي - وقد بلغ في دولة الخلافة الذروة بأمامته الفكرية وزعامته الروحية في اتخاذ خطوة سياسية بارعة معتمدا على مكانته وعلى ما بلغه عن الثقافات من عدالة ، « يوسف بن تاشفين » وأصالة رأيه ، واستقامة دينه وحبه للخير وشغفه بالجهاد في سبيل الله ووفرة قوة جيوشه ونظامها وتشبعها بروح الفداء وبعدها عن تميع الحضارة في دولته الناشئة ، وعلى ما أسماه الى (ابن تاشفين) من منه كبرى بتجميع القلوب حوله وتأيينه بفتواه وفتوى العلماء في ضم بلاد الاندلس الى مملكته التي رأى فيها (ابن تاشفين) وجنوده قوة حربية ساعدته على تحقيق انتصاراته العظيمة بما قدفته في قلوب أعدائه من الخزلان والاضطراب وبما بعثته في قلوب جنده من الاستبسال والبطولة .

لم يترك الغزالي الزمن يمر على الاحداث فيقلل من روعتها وينفل من حدتها ولكنه سابقتها واخذ يعمل بسرعة في السعي لدى دار الخلافة العباسية

فرعيتهم وقذف الله في قلوبهم الوهن والرعب فاندحروا منهزمين هزيمة منكرة . ما كانت تقوم لهم بعدها قائمة لو ظلت قوة الاسلام مجتمعة . متضامة على عهد خلفاء (ابن تاشفين) كما كانت على عهد ، وفي ظل امارته وسياسته ولكن تغير الحال في دولة المرابطين بعد وفاة عميدها ومؤسسها (يوسف بن تاشفين) أوقف اندفاع هذه الانتصارات الباهرة بل قلبها الى هزائم اطمعت أعداء الاسلام في بقايا مخلفات الدويلات الاسلامية الاسلامية هناك .

ذلك أن خضوع ابنه وخليفته من بعده (علي بن يوسف بن تاشفين) الى اعمار الفقهاء من أهل شواره وأصغائه لأرائهم في كتب الغزالي وتأثر الامام لذلك أشد التأثير ودعاؤه على دولته وتحريضه تلميذه العبد المذموم (محمد بن تومرت) الملقب فيما بعد بالمهدي على القيام بتقويض دعائم دولة المرابطين ، كل ذلك قلب الاوضاع وغير وجه الاحداث .

وقد نجح (ابن تومرت) نجاحاً مدهشاً في القضاء على دولة (المرابطين) واقامة دولة (الموحدين) على انقاضها بمعاونة صديقه وصفيه (ابن عبد المؤمن أول أمراء (الموحدين) التي قامت على مبادئ الغزالي وأفكاره .

هكذا لعب الامام الغزالي في السياسة دوراً من أخطر ما عرف في تاريخ الانقلابات السياسية . فهو قد أمد بنفوذه دولة ناشئة هي دولة المرابطين حتى أصبحت لها الكلمة النافذة في سائر الجانب الغربي من الوطن الاسلامي وهو قد قوض بنيان هذه الدولة بنفوذه وتسييره وتحريضه ، وأقام على انقاضها دولة جديدة هي دولة الموحدين التي أسسها وقام بدعوتها تلميذه الناصر الطموح (محمد بن تومرت) الملقب بالمهدي .

وكذلك العبقریات دائماً هي التي تصنع التاريخ ، وتوجه الاحداث ، وقد كان الغزالي أحد هذه العبقریات الضخمة في تاريخ الفكر الانساني في ظل الاسلام .

الغزالي بين تيارات النضال

كان عصر أبي حامد الغزالي - كما وصفناه - عصرا يهوج بتيارات الفكر البشري ويقبض بمنابع العلوم والمعارف الانسانية من ثمرات العقل وتجارب الحس لجميع أرباب الملل والنحل وسائر المذاهب والفرق والطوائف ، وكانت عواصم الخلافه الاسلاميه في الشرق والغرب ميدانا تصول فيه فحول العلماء وزعماء الافكار ودعاة الفرق المختلفه في محافل المناظرات والجدل ، وحلقات الدرس في دور العلم ومعاهده ، وفي المساجد ومجامع ذوى السلطان من الخلفاء والوزراء والولاة ممن يحبون مدارس العلم تمدحا به ومباهمة لمنافسة المتنافسين .

بيد أن هذا العصر الذى سمى فيه كلمة العلم كان عصرا منهك العرى السياسية ، مضطربا في نظمه الحكومية ، متميعا غير متماسك ؛ تشعبت فيه الدولة الاسلاميه العظمى الموحدة الى دويلات هنا وهناك ، اختلفت على نفسها ، وجعل الله بأسهم بينهم ، يحارب بعضهم بعضا ؛ لا تقوى احدهما الا على حساب ضعف أختها ، ولا تنهض منها دويلة الى الاخذ بأسباب الفسوة والعزة الا لتذل جارة لها تواخيها في ظلال الاسلام .

وكان أبو حامد رحمه الله قد بلغ في عصره مكانة من عريض الجاه وبعد الصيت وواسع الشهرة مما جعله مصيب حسنة الحاسدين ، ونال من الحظ الارفع ما فاق به أقرانه ، وخلفهم وراءه مشدوهين ، بل سما بمقامه على أصاآذته وشيوخه ، حتى قيل أن استأذنه ومؤسس شخصيته الامام الاجل أبا المعالى عبد الملك الجوينى أمام الحرمين - وهو من هو كان - كما يقولون ابن الغزالي فى التلمذة عليه عبد الغافر بن اسماعيل الفارسى - (لا يصغى اليه سرا ، لا باآه عليه فى سرعة العبارة وقوة الطبع ، ولا يعايب له تصديده للتصانيف وان كان متخرجاً به منتسبا اليه كما لا يخفى من طباع البشر ، ولكنه يظهر التبجح به والاعتداد بمكانه ظاهرا خلاف ما يضمرة) وكما يقول ابن السبكي فى الطبقات :

(ان الامام كان بالآخره يمتعض منه فى الباطن وان كان يظهر التجح به فى الظاهر)

وصل الغزالي فى امامة الفكر وكفاح المعاصرين من جميع الفرق والطوائف الى مرتبه لم تطمح اليها نفس تعاصره ، ولا طمحت شخصيه

فى عصره أن تطاوله ، واقتعد من الفضل ذروة حسده عليها أهل الاماني والاحلام من الطامعين ، وحرد عليه لاجلها وزراء عصره وأمراء دهره . وفى ذلك يقول عصريه وقرينه عبد الغافر الفارسى ، وهو شاهد عيان ومشافة بيان (فخرج من نيسايور - أى بعد موت أسناده امام الحرمين - وصار الى المعسكر واحتل من مجلس نظام الملك محل القبول : وأقبل عليه الصاحب لعلو درجته وظهور اسمه ، وحسن مناظرته وجرى عبارته ، وكانت تلك الحضرة محط رجال العلماء ، ومقصد الأئمة والفصحاء فوقع للغزالي اتفاقات حسنة من الاحتكاك بالأئمة وملاقاة الخصوم اللذء ومناظرة الفحول ، ومناقدة الكبار ، وظهر اسمه فى الآفاق ، وارتقى بذلك كل الارتفاق حتى أدت الحال به الى أن رسم لضمير الى بغداد للقيام بتدريس المدرسة الميمونة النظامية بها ، فصار اليها وأعجب الكل تدريسه ومناظرته ، وما لقي مثل نفسه ، وصار بعد امامة خراسان أمام العراق . وعلمت حشمته ودرجته فى بغداد حتى كانت تغلب حشمة الاكابر والامراء ودار الخلافة ، فانقلب الامر من وجه آخر ، وظهر عليه بعد مطالعة العلوم الدقيقة وممارسة الكتب المصنفة فيها ، وسلك طريق الزهد والمثاله ؛ وترك الحشمة وطرح ما نال من الدرجة للاستغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة ، فخرج عما كان فيه * وقصد بيت الله وحج ، ثم دخل الشام وأقام فى تلك الديار قريباً من عشر سنين) .

ويقول عبد الغافر أيضا : (وظهرت التصانيف وفشت الكتب ولم تبدو فى أيامه مناقضة لما كان فيه ولا اعتراض لاحد على أمره حتى انتهت نوبة الوزارة الى الاجل فخر الملك جمال الشهداء وقد سمح وتحقق بمكان الغزالي ودرجته وكمال فضله وحالته وُصفاء عقيدته ومعاشرته ، فتبرك به وحضره وسمع كلامه فاستدعى منه ألا يبقى أنفاسه وفوائده عقيمة لا استفادة منها ولا اقتباس من أنوارها ، وألح عليه كل الاحاح وشدد فى الاقتراح وأشير عليه بالتدريس فى المدرسة الميمونة النظامية فلم يجد بدا من الازعان للولاة ، ونوى باظهار ما اشتغل به هداية السراة وافادة للقاصدين دون الرجوع الى ما تخلى عنه من طلب الجاه وممارسة الاقران ومكاثرة المعاندين ، وكم قرع عصاه بالخلاف والوقوع فيه والطنع فيما يذره ويأتيه ، والسعاية به والتشجيع عليه ، فما تأثر به ولا اشتغل بجواب الطاعنين ، ولا أظهر استيحاذاً بغيره المخلطين) .

ثم قال عبد الغافر : (ثم سألناه عن كيفية رغبته فى الخروج من بيته والرجوع الى ما دعى اليه من أمر نيسايور ؟ فقال معتذراً عنه :

ما كنت أجوز في ديني أن أقف عن الدعوة ومنفعة الطالبين بالافادة ،
وقد حق على أنا أبوح بالحق وأنطق به وادعو اليه . وكان صادقاً في
ذلك ، ثم ترك ذلك قبل أن يترك ، وعاد الى بيته واتخذ من جواره
مدرسة لطلبة العلم ، وخالقه للصوفية . . . الى أن أصابه عين الزمان ،
وضنت به الايام على أهل عصره . فنقله الى كريم جواره بعد مفاصلة
أنواع من انتقصد والمناواة من الخصوم والسعي به الى الملوك ، وكفاه
الله وحفظه وصانه عن أن تنوشه أيدي المنكيات أو يهتك من دينه
بشيء من الزلات) .

هذا كلام صريح واضح يتحدث به الى التاريخ رجل عناصر الغزالي ،
بل شاركه الدراسة على أستاذ عصره ، وأمام دهره أبي المعالي عبد الملك
الجويني أمام الحرمين بل ان عبد الغافر يصرح بأنه كان يشك في مسند
اتجاه الغزالي الى الزهد والتجرد ، فيقول : (ولقد زرت مراراً وما كنت
أحدث في نفسي ما عهدته في سالف الزمان عليه من الذعارة والنظر اليه
بعين الازدراء والاستخفاف به كبرا وخيلاً واغتراراً بما رزقه الله من
البسطة في النطق والخطاير والعبادة وطلب الجاه والعلو في المنزلة انه
صار على الضد ، وتصفى من تلك الكدورات ، وكنت أظن أنه متلفس
بجلبات التكلف بما صار اليه ، فتحققت بعد التروى والتفكير ان الامر
على خلاف المظنون ، وان الرجل افاق بعد الجنون .

وحكى لنا في ليال كيفية أحواله من ابتداء ما ظهر له من سلوك
طريق التأله وغلبت الحال عليه بعد تبخره في العلوم واستنطالته على
الكل بكلامه والاستعداد الذي خصه الله به في تحصيل انواع العلوم
وتمكنه من البحث والنظر حتى تبرم من الاشتغال بالعلوم العربية عن
المعاملة وتفكر في العاقبة وما يجدى وما ينفع في الآخرة ، فابتدأ بصحبه
الفارمدى وأخذ عنه استفتاح الطريقة وامتل ما كان يتبر به عليه من
القيام بوظائف العبادات والامعان في النوافل واستدامة الاذكار والجهد
والاجتهاد طلباً للنجاة الى أن جاز تلك العقبات وتكلفت تلك المناسبات
وما تحصل على ما كان يطلبه من مقصوده .

ثم حكى لنا أنه راجع العلوم وخاصة في الفنون ، وعاد الجهد
والاجتهاد في كتب العلوم الدقيقة واقتفى تأويلها حتى انفتح له أبوابها
وبقى مدة في الوقائع وتكافؤ الأدلة وأطراف المسائل .

ثم انه حكى انه فتح عليه باب من الخوف بعينه شغله عن كل شيء
وحمله على الاعراض عما سواه حتى سهل ذلك ، وهكذا . وهكذا الى أن
ارتاض كل الرياضة ، وظهرت له الحقائق وصار ما كنا نظن به تعريفاً
وتخليقاً طبعاً وتحققاً ، وان ذلك اثر السعادة المقدرة له من الله .

فعبه الغافر المتحدث عن الغزالي ثقة صدوق ، يتحدث عن مشاهدة
لانه زميل معاصر مشارك للغزالي في طلب العلم والتلمذة على أستاذهما
أمام الحرمين ، فهو قرين عارف خبير بأحوال مجتمعه ، وقد شاهد الأحداث
تجرى من حوله ، والوقائع تمر بين يديه ، هنا وهناك ؛ والغزالي يخوض
لججها شجاعاً جريئاً ، مكافحاً ؛ يقتحم عليها مخاطرها ؛ ويهجم عليها
في غمراتها ، مقدماً ؛ وثوقاً بنفسه معجبا بقوة ذكائه ؛ ورجاحة عقله ؛
وسعة علمه ، وقوته على أقرانه وفحول أشيائه .

وقد شافهه عبد الغافر ليسمع منه سماع الناقد الحاذق المستبصر
حكاية حاله ، ليستشف من خبيثات نفسه ما عسى أن يكون كامناً
وراء منطق الأحداث من حقائق في حياة هذا الزميل الذي تقلبت به
الأحوال من طرف إلى طرف ، قد تكون خافية عنه ، فشهادة عبد الغافر
شهادة زميل لا يغلبه حسن الظن في صاحبه والاعجاب به ، فهي شهادة
صدق لا يأتيها الريب من بين يديها ولا من خلفها .

فالغزالي كان عبقرى مكافحاً ، يخوض غمرات الحياة جسوراً غير
«ياب ولا حذر ، وهذا الكفاح هو الظاهرة القوية الغالبة على عنوانه
حياته ، فهو منذ رحل من بلده « طوس » إلى مجلس استاذة أمام الحرمين
في ريعان الصبا وغضارة الشباب أخذ يلتهم بعقله العبقرى فاعتمد هذا
الامام الذي تفرد بإمامة عصره من العلوم والمعارف التي قضى في تحصيلها
ودرسها دهره حتى استقامت له قناتها وصار فيها المشار اليه .

فلما تضلع منها الغزالي وارتوى ، وامتلأ عقله الواعي بما حصل
وجمع ، أخذ وهو — بعد — لم يستدر عذاره ، ولم يطر شارب يقيده
ويؤلف ، ويكتب ويصنف ، وينقد ويبحث ويجادل ويناضل ؛ وعقد
لنفسه حلقة درس يحضرها للفادة منه أقرانه الذين رغبوا إليه إذ أنسوا
منه قوة الفهم وسعة التحصيل أن يستعيدوا عليه بعض ما قرأوا على
استاذهم واستأذهم ليتثبتوا ويحققوا ويزدادوا علماً ومعرفة .

وكان هذا التقدم من الغزالي بين يدي أستاذه لا يعجب أمام الحرمين ،
وكان يزور عليه منه ، ولم يشنه ذلك عن التطبع إلى الاستقلال في الجدل
 والبحث ، فانتفض المناظرة خصوم الاسلام من المتفلسفة والرافضة
والتعليمية القائلين بالامام المعصوم ، كما ناظر الخارجين على النصوص
الدينية بالتأويل المتعسف من المعتزلة والخوارج ، وناهض الحرفيين
الجامدين الواقفين مع ظواهر النصوص من المجسمة والمشبهة فقهرهم
جميعاً ، وعلا صوته على أصواتهم وأكر على غلاة المتصوفة الجامحين
مع الخيال من المعطلة القائلين بالوحدة بين الخالق والمخلوق ، ونقد الفقهاء

والمحدثين ، وعاب عليهم كثرة تفرعاتهم فى جزئيات يتكثرون بها ولما تقع فى الحياة ، نعى عليهم التعصب المذهبى ، وأخذ عليهم ركونهم الى ذوى السلطان من أهل الدنيا تطلعا لما فى أيديهم من خطاياها ، وشنع عليهم فى سكوتهم عن القيام بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر خشية اغضاب أولئك الظلمة ، والدخول معهم فى مظالم سلطانهم من التنظر على الاحباس وجباية الاوقاف ؛ والتطلع الى مناصب القضاء والولايات ، والوصول اليها بالرشا والهبات ؛ وقد كان السلف الصالح يفر منها فراره من الاوبئة الفاتكة ؛ وحمل على جميع هؤلاء بقلمه ولسانه حتى نفر العامة منهم ، وشكك الخاصة فى اخلاقهم وعزيمهم بل فى دينهم .

وكن الى جانب ذلك يرى امام عينيه دار الخلافة وعواضم الاسلام تموج بالمنكرات والمظالم ويرى عرى الدين تنحل فيها عروة الر عروة على مرأى مسمع من الخلفاء والملوك والامراء والحاكمين باسم الاسلام ، ويرى العلماء على كثرتهم ، خاصتهم مشغولون بانفسهم ؛ منطوون فى المساجد والزوايا والمدارس ؛ لا يغيرون منكرا ؛ ولا يرفعون عن مظالم ظلمنا ؛ ولا يدفعون باطلا ، ولا ينتصرون حقا ، وعامتهم منهمكون مع اهل الدنيا من الحاكمين والمحكومين ، يلهثون وراء دنياهم ، ولا ينيلونهم منها الا فضلات فتاتهم بعد ان يسلبوهم دينهم ؛ مما ارمض نفسه ؛ ودفعه الى أن يجهر بالحق فى وجه الولاة والحاكمين وينعى على الفقهاء والمتكلمين والمحدثين موقفهم ، وذلك كله مع استيفاء واجبه العلمى مع العلماء والمفكرين فى حلقات البحث والمناظرة .

كل ذلك أغرى به حاسديه من جميع الطوائف للوقوع فيه ، والتشنيع عليه ، والسعاية به الى ذوى السلطان فى الدولة من الخلفاء والملوك والامراء والولاة وبطانات دار الخلافة الذين كانوا يرون حشمتهم تعلو فوق سلطانهم ، وسمو مكانته تسمو على مراتبهم ودرجاتهم بما منحه الله له فى قلوب العامة وطلاب العلم من محبة وتعظيم .

وكان لهذا الاغراء أثره فى أنفس ذوى السلطان خوفا على سلطانهم أن تطيح به صولة هذا الامام الذى ملك القلوب بعلمه وفضله وديانته واخلاصه ودفاعه عن حوزة الاسلام بلسانه وقلمه ، والذى غالب خصومه - وما كان أكثرهم - فقهرهم بحجته ، وذاع صيته فى آفاق الاسلام شرقا وغربا ، وشهرت شخصيته فى محافل العلم وميادين المعرفة ، الى جانب ما صادفه هذا الاغراء فى صدر أولئك الحكام وبطالانهم من هوى مكتوم فى الميل الى الايقاع بهذا الامام أو زحزحته عن مكانه من الحياة ، أو اقصائه عن مواطن سلطانهم بقسره على العزلة عن حياة الناس .

وأبو حامد الغزالي رحمه الله رجل دراك ، حصيف الذهن ، ألمع الفراسة ، صادق المجلس ، لا يخدع عن عقله ، نال ما نال من المكانة ، وهو في فتوة الشباب ؛ وريعات الفتوة ؛ ومن حوله أقرانه الذين لم يلحقوا بغيره ، وأمامه أشياخه الذين خلفهم وراءه ، ولم يدركوا شأوه ، وهو يعلم ان الحسد داء البشرية القديم ، ومرض المعاصرة المقيم ، وفي ذلك يقول أبو حامد في مقدمة كتابه (فيفصل التفرقة بين الاسلام والزندقة) .

أما بعد فاني رأيتك أيها الاخ المشفق والصادق المتعصب موغر الصدر ، منقسم الفكر لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسنة على بعض كتبنا المصنفة في أسرار معاملات الدين ، وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الاصحاب المتقدمين والمشايخ المتكلمين وان العدول عن مذهب الاشعري ولو في قيد شبر كفر ، ومباينته ولو في شيء نزر ضلال وخسر ، فهون عليك أيها الاخ المشفق المتعصب على نفسك ، لا تضيق به صدرك وقل من غربك قليلا واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ، واستحقر من لا يحسد ولا يقذف ، واستهجر من بالكفر او الضلال لا يعرف) .

وكان الغزالي قوة من العبقرية الشائرة ، يحمل بين جنبيه شحنة من خصائص الامتياز الانساني في عقله وروحه ، يزكيها الكفاح ، وينميها النضال .

فهو لم يكن يرى المدرسة النظامية ، مدرسته الاولى في نيسابور تخلو من استناذه العظيم اما الحرمين الذي انتقل الى جوار ربه في سنة ٤٧٨ هجرية - وعمر الغزالي يومئذ ثمانية وعشرون عاما - حتى استوحشت نفسه - فعزم على الرحيل ميمما شطر المعسكر حيث رحاب الوزير العالم الفاضل نظام الملك ، وزير الدولة السلجوقية ، ومؤسس المدارس النظامية في نيسابور وبغداد وسواهما من حواضر الاسلام ، وهي أول مدارس في تاريخ الاسلام بعد البهيقية - كان للعلماء وطلاب العلم فيها نظام استقراري يفرغهم للبحث والدراسة .

وكان نظام الملك محببا للعلم والعلماء ، يميل الى التشبه بهم ، ويود لو أن التاريخ أدخله في زمريهم ، شغوبا بحسن الاحذوثة في المعرفة ؛ متمسكا بمذهب أهل السنة ، عطوفا على الصوفية ، محسنا اليهم ، حفيظا على الديانة ؛ قواما بواجباته السياسية ، بذولا في سبيل الحيز ونشر المعرفة والعلم ، يحفل مجلسه بفحول العلماء من كل مذهب، ودعاة الفرق وزعماء النحل للمناظرة والبحث .

وجد الغزالي في محافل هذا الوزير العملية فرصته الكبرى ، فاقتحمها

بشبابه جسورا على الفجور من المشيخة والكهول ، فصال وجال ، وناظر
وجادل ؛ حتى علت حجته على سائر مناظريه في كل مجال ، وظهر بجراته ،
وشهر ببراعته ؛ وقهر خصومه بمناظراته ، وانفرد بامامه خراسان ، ودان
له فيها كل ذي بيان بالقلم واللسان ، وجد به الجد ، وسمعت نفسه الى آفاق
أرفع ، ورحاب أوسع ، وأى ميدان املا بذخائر العلم والمعرفة من محت
رحال الغطارفة ، دار الخلافة بغداد ؛ فهي اذ ذاك موئل الفصحى وملاذ
الاسلام ، وملجأ الانام ؛ ومطمح كل عبقرى فى فنون العرفان .

لقد أقبل نظام الملك على الغزالي لما رآه فيه من مخايل العبقرية ،
وهؤذات الامامة ومعالم الفضل والديانة اقبالا ايقظ فى نفس الغزالي دواعى
المجد ، ورشح كبار الآمال وحرك منه رغائبه فى غزو محافل بغداد عاصمة
العراق بعد امامة خراسان ، وبهما تتم امامة دنيا الناس فى ذلك الزمان
رأى نظام الملك أن مدرسته النظامية فى بغداد فى حاجة الى تدعيمه
تضفى عليها من جلال التقديس التاريخى وقداسة المعرفة ما أضفى استاذ
الاستاذين امام الحرمين من قبل على نظامية نيسابور ، فرسم للغزالي - وقد
وجد فيه طلبته - بالتوجيه اليها ليلى رئاسة تدريسها واستاذية روادها
من أعلام العلماء ومتكلمي طلاب العلم من ذوى الاختصاص الذهنى والامتياز
الفكرى

استجاب الغزالي ونهض حازما عزائمه الى حاضرة الدنيا وجامعة المعارف
« بغداد - وألقى بها عصا الترحال ، وتولى مهام منصبه ، وقام بالتدريس
والمناظرة ، وأعجب به جهابذة الفكر النحارير اعجابا فرقة نوازع المعجبين
ومشاربهم ، بين الاعجاب القائم على دعائم تقدير المحبة والغبطة بامام كان
هؤلاء المعجبون يقدونه حسا مشهودا فى زعامتهم ويتراءونه فى احلامهم
أملا طائرا فى آفاق الاسلام ، حتى تمثلوه بينهم حقيقة وجودية تقودهم من
نصر الى نصر ، وبين الاعجاب القائم على التقدير لقوة فكريه قاهرة افتقدوها
هؤلاء المعجبون فى زعامة مناهضيهم حتى غافستهم وهم فى نشوة الاعجاب
بأنفسهم فأدهشتهم وأطاحت بأباطيلهم ، وأفاقوا من غشيتهم على صليل
سلاح من الحجة الدامغة لم يألوه فى معاركهم الجدلية مع خصومهم ، وهم

بنظرون الى هذه القوة فى أهاب هذا الامام وكانما فى صدورهم حسك
السعدان ، أو ضرام النيران . ولقد صدق عصرية المؤرخ الثقة عبد الغافر
الفارسى فى حديثه عنه يومئذ اذ يقول : (وما لقى مثل نفسه ، وصار بعد
امامه خراسان امام العراق) .

هذا الوضع التاريخى الذى وضعت فيه شخصية الغزالي لا ينبغى

الاعتماد عليه وحده فى تحديد معالم تلك الشخصية ، ووضعها فى مكانها من الحياة الفكرية .

ومفتاح شخصية الغزالي المفكر مائل - فى رأينا - فى تتبع أطوار حياته ، ودراستها مرحلة مرحلة ، دراسة مرتبة ؛ تستهدف فى منهجها معرفة ما كان عليه من السلوك ، وما أنتجه فى كل طور ومرحلة من أطوار ومراحل تلك الحياة من الأفكار والاعمال ، ثم الكشف عن صلة كل مرحلة وطور بما سبقه من اصوار ومراحل ، لان الغزالي كان فى حياته متوثبا سريع « التطور » كثير الاطوار ، متحفز النفس ، فوار العقل ، مستوفز السر . لم يعرف حياته الهوى والاستمرار : فهو اذا هدا بجسمه واعتزل الناس والحياة فى بعض أطوار حياته ، فان روحه كانت فى هذه العزلة المغلفة بالهدوء ، متوثبة ، وقلبه كان فيها يغلي غليان القدور تشتعل من تحتها النيران ؛ تغور نفسه ؛ ويتوثب عقله بحثا وراء الحقيقة التى كانت تتراءى له فى كل طور من أطوار حياته فى أطار من صنع هذا الطور الفكرى والاجتماعى .

د. رات له الحقيقة بظلالها الباهتة فى طور تصوفه البدائى التقليدى وهو فى طور الطفولية والصبا على يد شيخه ومرييه الاول ، ذلك البسوفى صديق ابيه ، ووصيه عليه فعلق منهما بقلبه ووجد أنه ما يعلق بالنفس المرفقة من آثار الروى الصادقة والاحلام المشرقة .

ثم تراءت له فى دراسة الفقه على مذهب الامام الشافعى الذى درس اوانته فى صبيته ببلده «طوس» على شيخه ابي حامد الرذائى ، قال تاريخ الدين السبكى فى الطبقات : وهذا الرذائى أحد اشياخ الغزالي فى الفقه تفقه عليه قبل رحلته الى امام الحرمين .

ثم رحل الغزالي لدراسة الفقه بأوسع مما وجده عند الرذائى الى جرجان ، وعلق عن الامام ابي نصر الاسماعيلى (١) - كما يقول ابن السبكى فى الطبقات - التعليقة ، ثم عاد الى بلده «طوس» يحفظ ما علق وكتب ، ومكث فى حفظ ذلك ثلاث سنين كما يحكيه عن نفسه فى روايه أسعد البهنسى ، خشية أن يفقد علمه بفقه تعليقه كما وقع له فى حادث قطع الطريق عليه وهو عائد من جرجان ، وهى حكاية مشهورة ، ملخصها أن العيارين قطاع الطريق سلبوه جميع ما كان معه ، قال الغزالي : فتبعتهم فالتفت الى مقدمهم ، وقال ارجع ويحك ، والا هلكك ؛ فقلت له : أسألك بالذى ترجو منه السلامة ان ترد على تعليقتى فقط ، فما هنى بشيئ ثم تقعون به ، فقال لى : وما هى تعليقتك ؟ فقلت : كتب فى تلك المخله (١) يظهر أنه وقع التباس بين ابي نصر هذا وهو متوفى سنة ٤٠٥ هـ والغزالي ولد سنة ٤٥٠ هـ فقير معقول مشيخته للغزالي وبين ابي القاسم الاسماعيلى ، وهو من أسرة ابي نصر وكانت وفاته سنة ١٧٧ هـ فمعقول ان يكون هذا هو شيخ الغزالي .

هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك وقال : كيف ندعى
انك عرفت علمها وقد اخذناها منك لتتحدث من معرفتها وبقيت بلا علم
ثم امر بعض اصحابه فسلم الى المخلاة فقلت لنفسى : هذا مستنطق انطقه
الله ليرشدنى فى امرى ، فلما وافيت طوس اقبأت على الاشتغال بسلات
سنين حتى حفظت جميع ما علقته وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم
اتجرد من علمى

وهذه الحكاية مرتبطة برحيل الغزالي من بلدة «طوس» الى جرجان
بعد ان استوفى ما عند شيخه الرذكانى من الفقه ، و اراد ان يتسع فى
دراسة الفقه بالاخذ عن الامام ابي نصر الاسماعيل فقيه جرجان فى عصره
ولنا فيها وقفة .

أولاً : ان رحيل الغزالي من طوس الى جرجان فى مبدأ حياته لم يذكره
عصريه عبد الغافر مع أنه أطال الرشاء فى ترجمة الغزالي وأبدى فيها
واعاد .

ثانياً : هذا الرحيل أغفله ابن السبكي نفسه فى ترجمة أول شيخ
للغزالي فى الفقه وهو ابو حامد الراذكانى ، وجعل التفقه عليه قبل رحلته
الى امام الحرمين ولم يشر الى رحلته لجرجان .

ثالثاً : الامام ابا نصر الاسماعيل الذى تقول الرواية عنه ان الغزالي
علق عنه تعليقه المذكورة فى الحكاية توفى - كما يقول ابن السبكي نفسه
فى الطبقات - سنة خمس وأربعماية ،

والغزالي ولد فى سنة خمسين وأربعماية ، فكيف أخذ عنه ؟

ولهذا نرى أن هذه الحكاية من تكثر الرواة ، وقبلها ابن السبكي
تكثر أيضاً فى شأن الامام الغزالي ، الا أن يكون فى الأمر التباس فى
تواريخ الرجال ، وهذا شئ لا يقوم عندنا الا على شك مبعثه حسن اذان
فى أهل العلم ، وقد ذكرنا فى هامش ص ٣٩ ما يكشف هذا الالتباس .

وأما كان الامر فانه المحقق من التاريخ ان الامام الغزالي طلب أول
مأطلب من العلم بعد مرحلة التربية الصوفية فى طفولته ، علم الفقه
فدرس منه فى صباه ما تهيأ له ، ثم رحل الى نيسابور ، وكانت إحدى
حواضر العلم والمعارف ، وفيها تتلمذ على مؤسس شخصيته العلمية سنة
الاستاذين الامام عبدا الملك الجوينى امام الحرمين (١) ، وكان هذا الامام
أحد العقول الاسلاميه الفذة فى عصره ، وكان قيم المذنبين ، مذهب الفقه

(١) توفى سنة ٤٧٨ هـ

على أصول الإمام السافعي ، ومذهب التكلام والجدال على أصول
مذهب الإمام الأشعري ، فوجد فيه الغزالي طلبته المرجوينة وضالته
المنشودة ، فلأزمه - وهو في سن التنبأ والفتاء - وجد واجتهادونافس
وزاحم حتى برح في الفقه والخلاف والجدال ، ووافق أفرانه في أصول الفقه
والعقائد وانطلق ، وفي هذا الطور من حياته تصدى للمناظرة والجدل
وارد على المخالفين من أساطين المعتزلة ، ودعاقين التعليمية القائلين بالإمام
المعصوم : ولك انجوبة في فهم مذاهب مخالفيه وأرائهم ، يقررهما
شبل الرد عليها بأفون وأوضح مما يقررهما أصحابها حتى عيب عليه ذلك
وقيل له : انك تسرد شبه خصومك ومذاهبهم بما لم يستطيعوه فكان
يعتذر عن صنيعه تبدأ بدونه : اني فصر في تقرير شبهة الخصم ان
أرمي بعدم فهم كلامهم .

وداع صينته في هذا الطور من حياته ، وتكالب عليه أرباب النجل ،
وتألب عليه زعماء الفرق ، ورموه عن قوس واحدة ، فرسخ لهم طوده ،
فلم يفلوا له قناة ، وتكسرت على صخرة عزائمهم سهامهم فلم يثلموا له
صفاد ، وقد فتح عليه الجدل والخوض في علم الكلام أبوابا من مسائل
الفلسفة الإلهية في العقائد ، فدرسها على أساتذة أمم الحرمين مع المنطق
والحكمة حتى أحكم ذلك كله - كما يقول ابن السبكي - ودرسها
استقلالاً من غير معلم أو أستاذ موفق - كما يقول الغزالي عن نفسه (تم
اني ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة ، وعلمت يقينا أنه
لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى
يساءون اعلامهم في أصل العلم ثم يزيد عليهم ، ويجاوز درجته فيطلع على
ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغاية ، فاذ ذاك يمكن ان يكون
ما يعيه من فساد حقا ، ولم أر أحدا من علماء الاسلام صرف عنايته
وهمته الى ذلك ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم حيث اشتغلوا بالرد
عليهم الا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد ، لا يظن الاغترار
بها بغافل عامي ، فضلا عن يدعي دقائق العلوم فعلمت ان رد المذهب
قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمي في عمية ، فشمرت عن ساق الجدل في
تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ
ومعلم وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التدريس والتصنيف في
العلوم الشرعية . . . فاطلعتني الله سبحانه بمجرد المطالعة في هذه الاوقات
المختلصة على منتهى علومهم في أقل من سنتين ، ثم لم أزل أواظب على
التفكير فيه بعد فهمه قريبا من سنة أعاوده واتفقت غوائله وأغواره حتى
أطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس وتحقيق وتخويل اطلاقا لم
أشك فيه) (١)

(١) المنقذ من الضلال

والغزالي رحمه الله يصف نفسه في هذا الطور - وهو أهم أطوار حياته ، وأعظمها ثورة مع نفسه ومع الحياة الفكرية عامة - فيقول (ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن . وقد أناف السن على الخمسين اقتحم لجه هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خرض الجبان الحذر ، واتوغل في كل مظلمة . واتهجم على كل مشكلة واقتحم كل ورطة واتفحص عقيمة كل فرصة . واستكشفت أسرار مذهب كل طائفة ، لامتيز بين محق ومبطل ، ومتسنى ومبتدع ، لا أغادر باطنيا الا وأحب أن أطلع على بطائنه ولا ظاهريا الا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ولا فلسفيا الا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلميا الا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا الا وأحرص على العثور على سر صفوته ولا متعبدا الا واترصده ما يرجع اليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا الا واتجسس وراءه بالتنبيه لاسباب جرأته في تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش الى ادراك حقائق الامور دأبي وديدني من أول امرى وريمان عمري ، غريزة وفطرة من الله تعالى وضعها في جبلي ، لا باختياري وحيلتي حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا .

وهذا النص واضح جدا في ان الغزالي يصرح بأنه انحلت عنه رابطة التقليد ودخل في زمرة الائمة المجتهدين من احرار الفكر في اوائل سن الشباب ، لأنها هي السن التي تكون قريية عهد بسنا الصبا ، وتلك هي سنة أيام تلمذته لامام الحرمين ، وهي مدة لا تقل في التقدير التقريبي المبني على تشبع أطوار حياته عن ثمانى سنوات ، وكانت أخصب أيامه

أى تقليد تحرر منه الغزالي وأى علم حل عنه رابطة ذلك التقليد

وهنا نتساءل ، أى تقليد هذا يقول الغزالي انه قد انحلت عنه رابطته نتيجة لتعطشه الى ادراك الحقائق ، واقتحامه ببحر العلوم والمعارف اقتحام الجريء الجسور ، وخوضه غمرة الفكر ، وتوغله فى خضم كل مشكلة ، وتهجمه على كل معضلة ؟ اهو تقليد عام فى جميع العلوم والمعارف والفنون التى عرفها عصره ؟

هو تقليد خاص بأصول الدين وعقائده ؟

ونتساءل مرة أخرى ، أى علم هو الذى استبحر فيه الغزالي ، وعرف مداخله ومخارجه واستوعب ظواهره ، وكشف الغطاء عن بواطنه ، وسهر فى قضايا ومسائله حتى كانت كأنها من بنات أفكاره وصنعه قريحته وأصبح فيها الامام الذى لا يرجع الى أمام ؟

والذى يؤخذ من كلام للغزالي أنه يقصد الى التقليد فى العقائد ؟ بدليل قوله فى النص السابق (وأنكسرت على العقائد الموروثة) وبدليل قوله فى آخر كتابه « ميزان العمل » (تحت عنوان بيان معنى المذهب واختلاف الناس فيه : لعلك تقول : كلامك فى هذا الكتاب انقسم الى ما يطابق مذهب الصوفية وإلى ما يطابق مذهب الاشعرية وبعض المتكلمين ولا يفهم الكلام الا على مذهب واحد ؟ فما الحق من هذه المذاهب ؟ ٠٠٠٠ الى ان يقول فجانب الالتفات الى المذاهب ، وأطلب الحق بطريق النظر لتكون صاحب مذهب)

ومن ثم يظهر انه لا يدخل التقليد فى فروع الفقه فى قصده ، والا تكون انحلت عنه رابطة التقليد فيها وهو فى مؤلفاته الفقهية كالبسائط والوسائط والوجيز يقرر مذهب الشافعى وان كانت له اجتهادات فى بعض فروع الفقه والمسائل العارضة فهى لا تخرجه عن التقليد فى دائرة اصول امامه الشافعى رضى الله عنه ، فهو بحسب اصطلاح الفقهاء مجتهد مذهب ، بلغ درجة الترجيح بين أقوال شيوخ المذهب ، وقد يجرى الغزالي على مسجيته فى التحرر الفكرى فيرجح مذهب غير الشافعى عليه كما صنع فى مسائل المياه وازالة النجاسة حيث رجح مذهب مالك فيها وارتضاء الغزالي

فى كتاب (جواهر القرآن) يهون من شأن الخلاف فى علم الفقه ، ويراه قريبا ويرى أن الخطأ فيه غير بعيد من البواب ، ويناسف نادما على أنه ضيع شطرا صالحا من عمره فى تصنيف الخلاف منه ، مع اعترافه بأن الحاجة اليه تعم لتعلقه بصلاح الدنيا أولا ثم بصلاح الآخرة ، ولذلك رزق هذا العلم مزيد بحث واطناب وعظم فيه الجاه والخشعة مما وفر السواعى على الافراط فى تفريعه وتشعييه ويرى أن ذلك مخالف لطريقة الاولين من السلف الصالح الذى كانوا لا يستغرقون جملة العمر فيه . شـمـم

ان الغزالى يعترف بأنه لم يكن ممن عنوا بالحديث والخلافيات فى مسائل الفروع ، وهما من أوائل ما يعتمد عليه المجتهد فى الفروع الفقهية ، وموضوعات التعبد والمعاملات بين الناس ، وقد يكون من أسباب ذلك أن عصر الغزالى كان عصر جدل فى العقيدة ، وكان الفقه التشريعى فيه قد استقرت أصوله وكثرت مؤلفاته وتعددت تفريعاته ،

وانحلال رابطة التقليد فى العقائد وهو الذى يقصده الغزالى واجب كل من تأهل للنظر فى الادلة ، فهل يقصد أبو حامد بذلك منهجه فى علم الكلام ؟ انه يأبى على البحث أن يؤمن بأن علم الكلام أخرجته عن التقليد الى الاجتهاد لانه يقول (ثم انى ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعاقبه وطلعت كتب المتقدمين المحققين منهم وصنفت فيه ما أردت أن أصنف ، فصادفته علما وافيا بمقصوده ، غير واف بمقصودى ، وانما مقصوده حفظ عقائد اهل السنة على اهل السنة ، وحراستها عن تشويش اهل البدعة . ولكنهم - أى المتكلمين - اعتمدوا فى ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم اضطرهم الى تسليمها أما التقليد او اجماع الامة او مجرد القبول من القرآن والاخبار ، فلم يكن الكلام فى حقى كافيا ولا لدائى الذى كنت اشكوه شافيا) ويقول فى كتاب « جواهر القرآن » ومن قسم بحاجة الكفار ومجاد لتهم يتشعب علم الكلام ، المقصود لرد الضلالات والبدع وازالة الشبهات ، ويتكفل به المتكلمون ، وهذا العلم شرحناه على طبقتين: سميننا الطبقة القريبة منهما الرسالة القدسية والطبقة التى فوقها « الاقتصاد فى الاعتقاد » ومقصود هذا العلم حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة ولا يكون هذا العلم مليا بكشف الحقائق .

فعلم الكلام اذن لم يكن هو الذى حل رابطة التقليد فى العقائد عن الامام الغزالى على اننا لاندري كيف أن مجرد القبول من القرآن او الاخبار المقطوع بها عند النبى صلى الله عليه وسلم لا يحل رابطة التقليد عن يفهم المقطوع بها عن النبى صلى الله عليه وسلم لا يصل رابطة التقليد عن يفهم طرائق الاستدلال بها ؟

كان الغزالى لا يرى أن الادلة النقلية اذا كانت قطعية انحصر والدلالة تكفى فى حل رابطة التقليد وانكسار العقائد الموروثة ، وما موقفه من

جمهور الصحابة وسائر الائمة قبل ظهور طرائق الاستدلال الكلامية ؟
 واذا كان علم الكلام بطرائقه الاستدلالية ، ومجرد القبول من القرآن
 والسنة الثابتة لم يحل رابطة التقليد عن الامام الغزالي فأى علم وراءهما
 يمكن أن يسند اليه حلها أهو علم الفلسفة ؟ وقد درسه الغزالي بعد فراغه
 من علم الكلام الذى لم يكن وافيا بمقصوده * وكانت دراسته للفلسفة -
 كما - يقول - من قراءة كتبها دون موقف ولا معلم فى أوقات فراغه
 من دروسه وتصنيفه ، ويقول انه حصلها حتى بلغ فيها أنه فاق أعلم علمائها
 فى سنتين وردد النظر بعد فهمها قريبا من سنة حتى اطلع على ما فيها من
 خداع وتلبيس وتحقيق وتخيل اطلعا لم يشك فيه .

وهنا نشاءل اية فلسفة هى التى يقصدها الغزالي بهذا الكلام الذى
 تبجح به فى كتابه المنقذ من الضلال ؟ أهى الفلسفة التى يعرفها الفلاسفة
 القدامى من الاوائل بجميع أبوابها وفروعها ؟ ويعرفها الفلاسفة الذين
 نشأوا فى ظل الاسلام ، الذين رد عليهم وكفرهم كابن سينا والفارابى
 والكندى وأمثالهم ممن تقدمه زمانهم .

ان الغزالي يجيب عن ذلك فى بساطة وثقة بالغة فيقول (فأطلعنى
 الله سبحانه بمجرد المطالعة فى هذه الاوقات المختلصة على منتهى علومهم
 ...) ثم أخذ يعدد طوائفهم فذكر (الدهريين) و (الطبعيين) و
 (الانهيين) وذكر أن علومهم بالنسبة الى غرضه تنقسم الى رياضية ،
 ومنطقية وطبيعية والهيية ، وسياسية ، وخلقية ثم تكلم على كل قسم ادخل
 تحته فنونا .

ونحن نقف فلا نستطيع الحكم على أبى حامد فى هذا ، ولا الحكم له ،
 وان كنا نؤمن انه لا حرج على فضل الله ، مع أنه ذكر فى مقدمات التهافت
 ان آراء الفلاسفة منتشرة وطرقهم متباعدة ، ومع ان مؤرخيه من أمثال
 ابن السبكي وعبد العافر ذكروا فيما ذكروه من الفنون التى أحكمها على
 استاذهم امام الحرمين العلوم الدقيقة والفلسفة .

ومن ثم فاننا نظن ظنا قويا فى توجيه كلام أبى حامد واطلاعه على
 الفلسفة فى مدى - سنتين من مجرد قراءة كتبها دون معلم واستاذ ، أن
 أبى حامد أخذ عن استاذهم امام الحرمين مبادئ الفلسفة ممزوجة فى علم
 الكلام والحوال ، فرسخ منها فى ذهنه كثير من أصولها ومصطلحاتها ولا
 مستعينا بمطالعة كتبها على ضوء ما أخذه عن استاذهم أمما الحرمين ، وقد
 كان له فيها القدح المعلى غير انه ماكان يظهر بها كما يدل على ذلك كلامه
 فى كتاب البرهان الذى اشتمل على معضلات فلسفية لا تزال مغطاة على

العقول ويدل لذلك كلام عبدة الغافر حيث ذكر الفلسفة في ضمن العلوم التي برع فيها الغزالي على يد استاذة الحرمين ، كما يدل على تبجح أئمة الحرمين في الفلسفة وإن لم يشهر بها قوله فيما يرويهِ ابن السبكي في الطبقات عن ابن السمعاني في الذيل انه قرأ بخط - الحافظ بن جعفر الهمداني ، قال ، سمعت أبا المعالي الجويني يقول : لقد قرأت خمسين ألفاً في خمسين ألفاً ثم خليت أهل الاسلام بأسلامهم فيها وعدوهم الظاهرة وركبت البحر الحضم وغصت في الذي نهى عنه أهل الاسلام منها . كل ذلك في طلب الحق وكنت أهرب من التقليد والآث قد رجعت عن الكل الى كلمة الحق ، عليكم بدين العجائز فان لم يهركني الحق بلطف بره فاموت على دين العجائز وتختتم عاقبة أمري عند الرحيل على نزهة أهل الحق وكلمة الاخلاص ، لا اله الا الله فالويل لابن الجويني .

قال ابن السبكي : قلت ظاهر هذه الحكاية عند من لا تحقيق عنده التبشاعة وانه خلى الاسلام وأهله ، وليس هذا معناها ، بل مراده انه أنزل المذاهب كلها في منزلة النظر والاعتبار غير متعصب لواحد منها ، بحيث لا يكون عنده ميل يقوده الى مذهب معين من غير برهان ثم توضيح له الحق وانه الاسلام فكان على هذه الملة عن اجتهاد وبصيره لا عن تقليد ، ولا يخفى أن هذا مقام عظيم لا يتهيأ الا لمثل هذا الامام ، وليس يسمح به لكل أحد ، فان عائلته تخشى الا على من برز في العلوم وبلغ في صحته الذهن مبلغ هذا الرجل العظيم .

ونتبّع هذا الظن بظن آخر وهو أن الغزالي قرأ من الفلسفة مختصرات استوعب أكثر ابوابها وتوسع في باب الالهيات لصاحبه القوية بعلم الكلام وأنه اعتمد على كتب ابن سينا والفارابي اللذين اعتبرهما أقوم الفلاسفة بمذهب أرسطو ، وعبارة ابن سينا قريبة الفهم أكثر من عبارة غيره والناظر في كتابه الاشارات يجد كثيراً من الفاظه وعباراته ممزوجة في كتب الغزالي ، ولا سيما كلامه في اشاراته عن العارفين ومقاماتهم والزاهدين ودرجاتهم وقد يكون الغزالي قاصداً هذا النحو في رده على اعتراض من اعترض عليه فقال : (ولقد اعترض على بعض الكلمات المبنيّة في تصانيفنا في أ رار علوم الدين طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم ، ولم تنفتح الى أقصى غايات المذاهب ببصائرهم ، وزعم ان تلك الكلمات من كلمات الاوائل مع أن بعضها من مولدات الخاطر ، ولا يبعد ان يقع الحافر على الحافر ، وبعضها يوجد في كتب الشريعة وأكثرها موجود معناها في كتب الصوفية ، وهب انها لم توجد الا في كتبهم فاذا كان ذلك كلاماً معقولاً في نفسه مؤيداً بالبرهان ، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة فلا ينبغي أن بهجر وينكر)

بهذا الغنى يمكن حل عقدة التوقف في قبول دعوى الامام الغزالي
في اطلاعة على الفلسفة ودراستها دون استاذ ومعلم حتى كان أعلم من
أعلمهم .

ولكن هل هي الفلسفة التي حلت عنه رابطة التقليد بعد اذ عجز عن
ذلك علم الكلام ؟

ان الامام الغزالي لم يلق في الفلسفة ولا في الفلاسفة بل أنه صرح
بأنه درس - الفلسفة ليرد عليها ، ويقول في التهافت (انه ابتداء تحرير
هذا الكتاب ردا على الفلاسفة القدماء مبينا تهافت عقيدتهم وتنساقض
كلماتهم فيما يتعلق بالالهيات وكاشفا عن غوائل مذهبهم وعوراتهم التي هي
على التحقيق مضاحك العقلاء) .

واذا كان هذا الكلام صريحا فلي القدماء من أمثال ارسطو واستاذ
أفلاطون ، فان الغزالي لم يحجم عن التصريح في كتابه المنقذ عن ادخال
من تبع القدماء من متفلسفة الاسلام كابن سينا والفارابي معهم في
التفكير بما كفرهم به .

فعلم الفلسفة اذن ليس هو الذي حل رابطة التقليد عن الغزالي في
قرب عهد بسن انصبا .

واذا كان علم الكلام والفلسفة عجزا عن حل رابطة التقليد عن
الغزالي فما الذي حلها عنه ؟ اهو التصوف الذي انتهى اليه الغزالي ، ويقول
عنه (ثم لما فرغت من هذه العلوم اقبلت بمهمتي على طريق الصوفية وعلمت
ان طريقهم انما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس
واستنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها الى تخلية
القلب عن غير الله تعالى) .

ويقول (أنى علمت يقينا ان الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى
خاصة وان سيرتهم احسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم
أزكى الاخلاق ، بل لو جمعوا عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على
اسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلوه بما
هو خير منه لم يجدوا انية سبيلا) .

والصوفية في نظر الغزالي هم أهل الكشف اللدني الذي هو (نوريته)
الله تعالى في الصدر (دون نظر في دليل أو ترتيب كلام ، كيف يحل
هذا رابطة التقليد في العقائد ؟ قد يكون مسلما بالنسبة للشخص في
ذاته اذا تحقق له ما يقوله الصوفيون من الكشف الذي ينتهي كما يقول
الغزالي الى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة
الوصول وكل ذلك خطأ) لكن الحالة اذا سلمت الى اربابها وحلت عنهم

رابطة التقليد في ذواتهم فقط ، فهي ليست حالة العلماء المجتهدين في تأسيس عقائدهم هم على النظر والبرهان .

لكن الغزالي رحمه الله يحل هذا الاشكال بما يقوله في كتاب (ميزان العمل) تحت عنوان (المذهب الثالث) ما يعتقد الرجل سرا بينه وبين الله عز وجل لا يطلع عليه غير الله تعالى ولا يذكره الا مع من هو شريكه في الاطلاع على ما أطلع أو بلغ رتبة يقبل الاطلاع عليه ويفهمه) .

ومعنى ذلك أن الانسان يعيش مع الناس بمذهب وعقيدة ، ومع نفسه فيما بينه وبين الله بمذهب وعقيدة ولا ندري ما هذا ؟ الا ان يكون شيئا جاء من قبيل خبيثات الفلسفة أو مذهب التعليمية أصحاب الامام المعصوم والسر المكتوم ، والامام الغزالي يرد عليهما ويزيف مذهبهما .

متى تصوف الغزالي ؟؟

واذا قبلنا أن التصوف يمكن أن يحل رابطة التقليد في خاصة الانسان وداخل نفسه وهو الذي حل رابطة التقليد عن الغزالي ، فمتى تصوف الغزالي تصوفا انتهى به الى الكشف عن حقائق الغيب فيكون الايمان مع هذا الكشف ايمان مشاهدة وحضور وهذا لا تقليد فيه ؟ هل تصوف في سن قريبة عهد بسن الصبا التي يقول انه انحلت عنه فيها رابطة التقليد ؟

ليس بين باحثي الغزالي من يقول انه تصوف مبكرا ، سوى ما فتننا اليه النظر من بداية حياته على يد شيخه الصوفي الذي وصاه أبوه عليه وعلى أخيه ، وقد استروحنا أن تربية الغزالي بدأت صوفية غير ان هذه الحالة لم تتصل ، لان طلبه العلم وخوضه بحار العلوم واشتغاله بنضال الفرق المخالفة قطعها ، فبقى ما بقى منها راسبا في قاع نفسه حتى حركته النهاية « الصوفية » العظمى التي انتهت اليها الغزالي في آخر حياته بعلمه وعقله وقلبه .

على أن بعض الروايات يقول : أن الغزالي كان ينكر على الصوفية أحوالهم حتى هداه الله لطريقتهم على شيخه النساج . روى الزبيدي في شرح الاحياء عن قطب الدين .

محمد بن الاردبيلي قال : قال حجة الاسلام : كنت في بداية امرى منكرا لاهوال الصالحين ومقامات العارفين حتى صحبت شيخى يوسف النساج بطوس ، فلم يزل يصقلني بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات ، فرأيت الله في المنام ، فقال لي : يا أبا حامد ، قلت : أن الشيطان يكلمنى

قال ثلا ، بل أنا الله المحيط بجهاتك الست ، ثم قال : يا أبا حامد ذر مساطرك وأصحب أقواما جعلتهم محل نظري ، وهم الذين ياعوا الدارين بحبي ، فقلت : بعزتك الا أذقتني برد حسن الظن بهم ، فقال : قد فعلت ، والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا ، فأخرج منها مختاراً قبل ان تخرج منها صاغراً ، فقد افضت عليك أنواراً من جوار قدسي ففزونل ، فاستيقظت فرحاً مسروراً وجئت الى شيخى يوسف النساج فقصصت عليه المنام فتبسم ، قال : يا أبا حامد، هذه الواحشافي البداية محوناها بأرجلنا ، بل ان صحبتني سيكحل بصري بصيرتك بائمه التأييد حتى ترى العرش ومن حوله ، ثم لا ترضى بذلك حتى تشاهد ما لا تدركه الابصار ، فتصفو من كدر طبيعتك وترقى على طور عقلك ، وتسمع الخطاب من الله تعالى كموسى (انى انا الله رب العالمين) .

هذه رواية نذكرها لانعرضها على العقل ليحكم لها أو عليها ، لان أحوال الصوفية ومدركاتهم فوق طور العقل ، كما يقولون عن أنفسهم وانما ذكرناها لنبين اننا نقف منها موقفه التشكك ، لما اشتملت عليه من انكار أبى حامد لاهوال الصالحين ومقامات العارفين ولم نطلع على شيء من الانكار فى كتب الغزالي التى قرأناها ، وانما كان ينكر على الحلوليين ممن يدعون التصوف وغيرهم من فرق الضلال ، وظل على ذلك الى آخر حياته ينكر عليهم ويجاهدهم بحجة العقل وقواعد العلم والشرع ، أما صالحو القوم وعارفوهم فكان محابلهم منذ رضع البانهم الى ان فطم على ايديهم .

وفى هذه الحكاية أيضا ما يؤيد نظرية التصوف فى قول رجاله : أن العلم حجاب ، فقد قيل لابی حامد فى هذه الحكاية ذر مساطرك وأصحب اقواما فى أرضى جعلتهم محل نظري . وفيها ان الغزالي تصوف بعد ان طوف الافاق وبحث ودرس وجادل ، ثم عاد الى بلده طوس ليستقر فيها وهناك اجتمع بالنساج وأخذ عليه الطريق فلم يكن التصوف مما عناه فى حل رابطة التقليد .

على ان هناك رواية يرويها الشعرانى نقلا عن محبى الدين بن عربى تفيد ان تصوف الغزالي لم يخلصه تماما من حجاب العلم ، قال ابن عربى (وكان الغزالي يقول : لما أردت ان انخرط فى سلك القوم وأشرب من شرابهم نظرت الى نفسى فرأيت كثرة حجبها ولم يكن لهشيخ اذ ذاك - فدخلت الخلوة واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يوما فأنقذح لى من العلم ما لم يكن عندى ، أصفى وأدق مما كنت أعرفه ، فنظرت فيه فاذا فيه قوة فقهية ، فرجعت الى الخلوة واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يوما فأنقذح لى علم آخر ، أرق وأصفى مما حصل عندى أولا ، ففرحت

به ، ثم نظرت فيه ، فاذا فيه قوة نظرية فرجعت الى الخلوة ثالثا أربعين يوما فانقدح لي علم آخر هو أرق واصفى ، فنظرت فيه فاذا فيه قوة ممزوجة بعلم علم ، وللم الحق تأمل العلوم الدنية فعلمت ان الكتابة على المخوليسست كانت كتابة على الصفاء الاول والطهارة الاولى ، ولم اتميز عن النظائر الا ببعض أمور . قال ابن عربي : رحم الله أبا حامد ما كان أكثر انصافه وتحرزه من الدعوى .

وهذه الرواية أظهر في أن العلم حجاب عن الفتوحات الدنية ، وإنما يكون الفتح عن طريق العلم في باب العلم ، وهي تدل على أن مقام الغزالي في التصوف محدود ، وأنه لو تصوف منذ بدايته على مقتضى فطرته لادرك السابقين من العارفين .

وقد يكون تفكير الغزالي في التصوف العلمي والعمل بدأ في أيام إقامته بالمعسكر بعد رحيله إليها من نيسابور عقب وفاة أستاذه ، أمام الحرمين سنة ٤٧٨ هـ وأقام بها الى سنة ٤٨٤ هـ وكان في هذه المدة يحضر مجلس نظام الملك للمناظرة والدفاع عن عقيدة أهل السنة التي كان النظام القيم السياسي عليها في عصره ، وكان نظام الملك سنيا صوفيا شديد التعلق بالصوفية ، شديد التعصب لهم ولبائدهم ، مسرفا أشد الاسراف في البذل عليهم واعداد الشكايا لهم ، وخدمتهم ، وتوفير الفراغ لهم لتعبدهم وصفاء أوقاتهم .

حتى واجه الخليفة بتلك القولة الماثورة عنه وهو يعاتبه لاسرافه في انفاقه عليهم ، وشغله بهم ، وأهمال الجيوش ، وأمور الدولة وسياستها .

(لقد أقمت لك عبادا بالليل لو صاحو الزلزمت الدنيا بخصومك ومادت بهم الارض) (١)

والغزالي شديد الحساسية مرهف الشعور ، عبقري النفس ، لو ذعى العقل ، لماح خاطر فلا يمكن أن يفوته ، وهو في مكانته من نظام الملك ، ملاحظة تعلق النظام بالطائفة وبذله العناية الفائقة في خدمتهم والغزالي اذا لاحظ تحرك ، واذا تحرك مضى قدما ، لا يلتفت خلفه فهل يكون خاطر الغزالي تحرك نحو النظر في شأن الصوفية وعلومهم وأحوالهم ومقاسماتهم من يومئذ ، هو لابد ان يكون قد جرى انتظام الحديث في أمرهم يقول الاستاذ طه عبد الباقي سرور : (كان لنظام الملك فضل توجيه الغزالي الى التصوف والصوفية وقد كان شديد

(١) الغزالي للاستاذ طه عبد الباقي سرور

الخصومة لهم شديد الاسراف فى تقديمهم ، فاندفع الغزالي كعادته يبحث .
كتبهم ويغشى مجالسهم ، بل ويشترك فى حلقات ذكرهم) .

ولكن الغزالي عاد الى التدريس فى مكان استأذه امام الحرمين .
بنيسابور ، وله فيها عهود فى الجدل والمناظرة أيام تلمذته على الامام ،
ويظهر ان ذلك شغله عن مداومة النظر فى التصوف فتوقف الى حين ،
أو على التحقيق صرفته عنه دواعى منصبه الذى تولاه ، وهو منصب
خطير جدا ، وكان فيه مرموقا منظورا اليه ، والتصرف يطالبه بقطع
علائقه بالدنيا ، وهو بهذا المنصب مغمور فيها ، فلم يتسع له المجال
لمتابعة السير مع الصوفية ، ولكننا لا نعتقد ان الغزالي وهو لملاح الخواطر ،
عظيم الروح ، عبقرى العقل ، تجرد بمنصب التدريس من كل أثر
لصوفية المعسكر الذين عاشرهم أكثر من أربع سنوات ، وإذا أضفنا
هذا الأثر الى الأثر الأول التقليدى على يد شيخه الأول فى طفولته خلص
لنا أن الصوفية داعبت عقل الغزالي وروحه منذ طفولته ، وفى عنفوان
شبابه ، ثم جدت به وأحاطته بشتهاكها فى رجولته المستحكمة ، فجذبت به
اليها جذبا اضطراريا ، فكان منها وكانت منه ، وكان لها المدره والمفوه البارخ ،
والعقل المدافع ، والروح المشرق ، والقلب الشفاف ، فلما فرغ لها بسط
طرائقها ، ومهد للناس أحوالها ، وأحكم لهم أصولها حتى استقامت على
يده علما مؤصلا بقواعده وأصوله وآدابه وسبلوكه .

وإذا كان علم الكلام ، الفلسفة والتصوف ، لم يظهر أن واحدا منهما
هو الذى حل رابطة التقليد عن الغزالي وهى علومه التى صال فيها وجال
وصنف وكتب وأخذ ورد فما توجيه كلامه فى حل رابطة التقليد عنه فى
سن الصبا .

علم الكلام والتصوف اشتركا فى حل رابطة التقليد عن الغزالى

والغزالى ينظر الى علم الكلام نظرين :

انظر الاول ، باعتباره علما يقوم على صحة النظر فى الادلة والبراهين العقلية التى تحقق قضاياها وتثبتها اثباتا يحميها من زعزعة المناقضات والمعارضات والشبه - يودى الى ضرب من اليقين العقلى فى حدود المقاييس العقلية المعتبرة فى النظر البرهاني عند من يسلمها .

وهذا النظر هو ما يقصده الغزالى بقوله عن هذا العلم : (فصادفته وافيا بمقصوده) وهو بهذا الاعتبار مؤد بمن حصله تحصيله كاملا ، ونظر فيه نظرا استدلاليا الى أن تنحل عنه رابطة التقليد العقائدى بالنسبة للعقائد الحققة المأخوذة أولا بالتقليد النقلى عن الكتاب والسنة من نصوصهما القطعية ومن استنباط علماء الاسلام فيما لا اختلاف فيه ، وهذا لا يسمى فى نظرنا تقليدا بالمعنى المشهور بل هو أجل أنواع الاجتهاد .

وقد صرح الغزالى فى المنقذ من الضلال بأن مقصود هذا العلم (هو حفظ عقائد أهل السنة على أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة ، فقد أتقى الله على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقيدة هى الحق على ما فيه صلاح دينهم وديناهم كما نطق بمعرفته القرآن والاخبار) .

والغزالى بلغ ذورة هذه المرتبة ، فكان اماما نظارا ، جادل عن عقيدة أهل السنة ودفع عنها شبه خصومها ومناقضاتهم ، دفعا جعل الناس يلوذون به باعتباره الحارس للعقيدة بقوة حجته ، وهذه مرتبة لا يبلغها الا من انحلت عنه رابطة التقليد فى العقائد الموروثة) .

وهو يقول عن أصحابها : (ولقد قام طائفة منهم بما أيدهم الله تعالى فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقة بالقبول من النبوة والتغيير فى وجه ما أحدث من البدعة) .

وقد كان هو فى عصره أمام هذه الطائفة ، وعلى هذه الدعامة فى

الجدل والمناظرة قام مجده في نيسابور وبغداد في رحلته الاولى الى مجلس
أستاذه امام الحرمين ، والى ولايته التدريس في المدرسة النظامية في
بغداد ، فقد انتدب نفسه للدفاع عن عقيدة أهل السنة ، وندبته بعقيدته
الجدلية المناهضة المعتزلة ، والتعليمية ، وهما أقوى الطوائف المعارضة
في عصره ، فأحمد جذوة بدعتيهما وتعلق الناس به وبلغ من الصيت
وعريض السمعة ما لم يبلغه أحد من أقرانه .

ومن هنا يترجح عندنا ان علم الكلام بهذا النظر هو الذي حل
رابطة التقليد عن الغزالي وبلغ من مبلغ الاجتهاد والتحقيق ، وان كان
ابن السبكي يشكك في ذلك فيقول ولم أر له مصنفا في أصول الدين بعد
شدة الفحص الا أن يكون قواعد العقائد ، وعقائد صغرى ، وأما كتاب
مستقل على قاعدة المتكلمين فلم أره .

وهذا التشكيك لا يقوم على أساس من اليقين ، لان عدم رؤية
الشيخ ابن السبكي رغم شدة تفحصه كتابا مستقلا في أصول الدين على
طريقة المتكلمين ، لا يدل على عدم الوجود ، والغزالي نفسه يصرح بأنه
صنف في علم الكلام بعد أن أحكمه على أستاذه أمام الحرمين مصنفا
ويؤيد ذلك :

أولا : مواقف الغزالي التي تواترت أخبارها منذ لقي شيخه
الجويني ، وتلقى عنه مذهب الشافعي والاصليين والمنطق ، وبرع في
ذلك وأحكمه ، وانتفض في حياة أستاذه للمرد على أرباب المذاهب والنحل
وأبطال دعاويهم ، فتهاوروا أمام صولة منطق وقوة عارضته وساطع حجته .

ثانيا : على ما بثه في مؤلفاته الاصولية والفلسفية والجدلية
والعقائدية ، فانها كلها تنضح بالذب عن عقيدة أهل السنة ومدافعة
خصومهم بلوازم مسلماتهم ، وهى الطريقة المفضلة عند الغزالي ، انسانية
في مؤلفاته حتى كتابه الذى أفرده للمرد على الفلاسفة واطهار ضعف
مقالاتهم وكشف ما فيها من خداع وتلبيس ، وهو الكتاب المعروف باسم
(تهافت الفلاسفة) الذى عقده خصيصا لموضوعه ، فانه يجرى فيه
معهم على نمط الالتزام ولهذا ترى الفيلسوف ابن رشد يحمل عليه ويتهكم
به فى كتابه (تهافت التهافت) الذى رد به على الغزالي ، ويرميه بالجهل
بالفلسفة ، وناقشه باعتباره اشعريا أو متكلميا بلسان الاشاعرة اللذين
هم أهل السنة فى نظر علماء الكلام ، وهذا بين مبثوث فى ثانيا هذا
الكتاب .

ثالثا : للغزالي كتاب « الاقتصاد فى الاعتقاد » وهو من أعمق
وأوسع ما كتب فى موضوعه ، ولا ندري هل يعنيه ابن السبكي فى

ضمن الكتابين اللذين ذكرهما ، فيكون من قبيل تعدد الاسماء أو لم يطلع عليه وهذا بعيد ، أو أطلع عليه ولم يره كذلك ؟ والغزالي نفسه يقول في كتاب (جواهر القرآن) وهذا العلم - أى علم الكلام - قد شرحناه على طبقتين ، سميها الطبقة القريبة منهما الرسالة القدسية « والطبقة التي فوقها الاقتصاد في الاعتقاد » .

النظر الثاني :

ينظر الغزالي الى علم الكلام باعتباره علما لا يفي بمقصوده الخاص به فيما بينه وبين الله تعالى فيما يطلبه من اليقين في ادراك الحقائق ادراكا تثبته الضرورة العقلية التي ينكشف معها المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه امكان الغلط والوهم .

هذا النظر بهذا الاعتبار هو الذي دفع الغزالي الى أن يقول عن علم الكلام بالنظر الاول : (وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئا أصلا ، فام يكن الكلام أى بالنظر الاول - في حق كافيا ، ولا لدائي شافيا) .

بيد أن أبا حامد رحمه الله يعترف ان هذا نمط في تطلب الحقيقة خاص به ، وبمن كان على غراره ، ويصرح بأن علم الكلام بالنظر الاول قد يكون نافعا لغيره محققا لفرضه (فان أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء ، وكم من دواء ينتفع به مريض ويستضر به مريض آخر) .

والغزالي يرى في كتابه (ميزان العمل) أن لكل كامل ثلاثة مذاهب

أحدها - مذهب الآباء والاجداد والبلد الذي فيه النشوء والعلم الذي أخذ عنه .

ثانيها - مذهب الارشاد والتعليم لمن جاء مستفيدا مسترشدا .

ثالثها - ما يعتقد الرجل سرا بينه وبين الله عز وجل ، لا يطلع عليه غير الله تعالى ولا يذكره الا مع من هو شريكه في الاطلاع على ما اطلع أو بلغ رتبة الاطلاع عليه ويفهمه ، وذلك بأن يكون المسترشد ذكيا ولم يكن قد رسخ في نفسه اعتقاد موروث نشأ عليه وعلى التعصب له ، ولم يكن قد انصبغ قلبه انصبغا لا يمكن محوه) .

فعلم الكلام بالنسبة للمذهبيين الاولين كاف بمقصودهما محقق للغرض المطلوب لهما ، وبالنسبة للمذهب الثالث الخاص باعتقاد الشخص فيما بينه وبين الله تعالى قد يحقق الغرض عند بعض الناس ، ويكفي لمقصودهم ، وما دام هذا المذهب خاصا سريا لا يبوح به صاحبه

الا لمن كان على شاكلته حسا ومعنى فلا يحتاج للمناضلة عنه والجدل فيه ، فهو لا حاجة به الى علم الكلام ولا الى أى لون من المباحين الكلامية والادلة المنطقية التى يقصد بها حماية العقيدة من شبه المبتدعة وشغب المنحرفين .

ومن ثم يخلص للبحث :

أولا : ان علم الكلام هو الذى حل عن الغزالي رابطة التقليد العام فى العقيدة فى سن قريبة عهد بسن الصبا باعتباره مرشدا ومعلما ، ومناضلا لحماية عقيدة العامة من شبه المبطلين وأصاليب الفرق ، لانه العلم الذى أحكمه وتضلع فيه على قيمة عبقرى المناظرين فى عصره أسستاه أمام الحرمين ، وكان اذ ذاك فى سن يصدق عليها انها قريبة عهد بسن الصبا .

ثانيا : ان التصوف هو الذى حل عن الغزالي رابطة التقليد الخاصة به التى كان يحسبها من نفسه ويريد أن يقتلعها بيقين لا يبقى معه ريب ولا يقارنه امكان الغلط والوهم بحيث نو تحسده من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً لم يورث ذلك شكاً فى معلومه .

وهذه مرتبة حصل عليها الغزالي - كما يقول فى كتابه (المنقذ) - بعد أن تخلخلت فى نظره دعائم المحسوسات والعقليات فى توصيلها له الى ذلك اليقين الخاص الذى يطلبه فى ادراكه للحقائق ، وبعد أن اضطربت أعصابه وتوقف عن النظر مدة كان فيها - كما يقول - على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال .

وفى ذلك يقول فى (المنقذ من الضلال) : (فتحرك باطنى الى طلب حقيقة الفطرة الاصلية وحقيقة العقائد العارضة بتقليد ابوالديز والابستازين والتمييز بين هذه التقليدات وأويلها تلقينات وفى تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات فقلت فى نفسى أولا انما مطلوبى العلم بحقائق الامور فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هى ؟ فظهر لى ان العلم اليقيني هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ولا ينسج القلب لتقدير ذلك ، بل الامان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً لم يورث ذلك شكاً وانكاراً فانى اذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة فلو قال لى قائل : لا بل الثلاثة أكثر بدليل انى أقلب هذه العصا ثعباناً ، وقلبيها ، وشاهدت ذلك منه لم اشك بسببه فى معرفتى ولم يحصل لى منه الا التعجب من كيفية قدرته عليه فاما الشك فيما علمته فلا ، ثم علمت ان كل ما لا أعلم على هذا الوجه

ولا اتيقنه هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقينى .

ثم فتشت عن علومى فوجدت نفسى عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة الا فى الحسيات والضروريات فقلت الآن بعد حصول اليأس لا مطمع فى اقتباس المشكلات الا من العليات وهى الحسيات والضروريات فلا بد من أحكامها أولا لايقن ان ثقتى بالمحسوسات وأمانى من الغلط فى الضروريات من جنس أمانى الذى كان من قبل فى التقليديات ومن جنس أمان أكثر الخلق فى النظريات أم هو أمان محقق لا غدر فيه ولا غالة له فأقبلت بجهد بليغ أتأمل فى المحسوسات والضروريات وانظر هل يمكننى أن أشكك نفسى فيها فأنتهى بى طول التشكيك الى أن لم تسمح نفسى بتسليم الامان فى المحسوسات أيضا ، وأخذ يتسع الشك فيها ويقول من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حساسة البصر وهى تنظر الى الظل فتراه واقفا غير متحرك وتحكم بنفى الحركة ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف انه يتحرك وانه لم يتحرك بغتة ودفعة بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف وتنظر الى الكوكب فتراه صغيرا فى مقدار دينار ثم الادلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الارض فى المقدار ، هذا وأمثاله فى المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكام ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل الى مدافعته ، فقلت قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا فلعله لا ثقة الا بالعليات التى هى من الاوليات كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة والنفى والاثبات لا يجتمعان فى الشئ الواحد والشئ الواحد لا يكون حادثا قديما موجودا معدوما واجبا محالا ، فقلت المحسوسات بم تأمن أن تكون ثقتك بالعليات كشقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقا بى فجاء حاكم العقل فكذبنى ولولا ان جاء حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى فلعل وراء ادراك العقل حاكما آخر اذا تجلى كذب العقل فى حكمه كما تجلى حاكم العقل فكذب الحسى فى حكمه وعدم تجلى ذلك الادراك لا يدل على استحالة فتوقفت النفس فى جواب ذلك قليلا وأيدت اشكالها بالمنام وقالت : أما تراك تعتقد فى النوم أمورا وتخيل أحوالا وتعتقد لها ثباتا واستقرارا والاتشك فى تلك الحالة فيها ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل فيم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل هو حق بالاضافة الى حالتك ، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك وتكون يقظتك نوعا بالاضافة اليها فاذا أوردت تلك الحالة ثيقت ان جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها ، أو لعل تلك الحالة ما يدعيها الصوفية

انها حالتهم اذ يزعمون انهم يشاهدون فى احوالهم التى اذا غاصوا فى
انفسهم وغابوا عن حواسهم أحوالا لا توافق هذه المعقولات ولعل تلك
الحالة هي الموت) *

وحصول انغزالي على هذه المرتبة من اليقين التى يدرك بها الحقائق.
ادراكا يقينا لا شك فيه لم يكن - كما يقول - عن نظم دليل منطقي ولا
ترتيب كلام بقياس برهاني ، وانما كان بنور قذفه الله فى قلبه فكان
ذلك النور مفتاح اكثر معارفه وعلومه كما هو شأنه مع أربابه .

وهذا امر لا يجدى فيه النقاش والبحث ، لانه وراء النقاش والبحث،
فمن انكره وطالب باقامة الحجة العقلية على صحته ووجوده ، قيل له أن.
العقل ليس هو الباب الوحيد لادراك الحقائق ، ومن قبله وسسلمه فهو
مقلد لاهله أو ذائق مذاقهم وشارب من مشربهم ، وانغزالي رضى الله عنه
يقول (فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله-
الواسعة .

اصل التصرف وأطواره

في الاسلام

أكثر الناس قديما وحديثا عن « التصرف » وحاول الباحثون من القدماء والمحدثين ان يتعرفوا على حقيقة هذا اللفظ في أوضاع اللغة - ومقاييسها الاصطلاحية ، فلم تسعفهم أصولها الوضعية وقواعدها النقيسية ، وتفريعاتها الاشتقاقية بأصل يمكن الاعتماد عليه في صحة نسب هذا اللفظ الى أبوابها .

وفي ذلك يقول أبو القاسم القشيري في رسالته : (هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، فيقال : رجل «صوفي» ، وللجماعة (صوفية) ، ومن يتوصل الى ذلك يقال له «متصوف» وللجماعة «متصوفة» وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قد يأس ، لا اشتقاق ، والاظهر فيه انه كاللقب .

فأما قول من قال : انه من «الصوف» ، وتصوف اذا لبس الصوف ، كما يقول : تقمص اذا لبس القميص ، فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف .

ومن قال : انهم منسوبون الى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالنسبة الى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي .

ومن قال : انه مشتق من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة .

وقول من قال : انه مشتق من الصف ، فكانهم في الصف الاول يخلو بهم من حيث المحاضرة من الله تعالى ، فالمعنى صحيح ، ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة الى الصف .

ثم ان هذه الطائفة اشهر من أن يحتاج في تعيينهم الى قياس لفظ . واستحقاق اشتقاق .

ونحن نميل الى انه لقب منقول تعريفا من لغة غير عربية ، فهو حادث مع حدوث الالفاظ الدخيلة التي فدت على العربية مع الافكار والمعاني والمذاهب الاراء في القرن الثاني من الهجرة ، لم يعرف معرفة لقبية لطائفه عن الناس بعينها قبل ذلك في تاريخ الاسلام ، وقد يكون عرض له شيء من التصرف اللساني لصقله تخفيفا كما عرض لكثير من الالفاظ الوافدة .

قال الامام أبو القاسم القشيري : (ان المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية «علم» سوى صحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ لا فضيلة فوقها ، فقليل لهم : الصحابة ولما أدرك أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة التابعين ، ورأوا ذلك اشرف سمة ، ثم قيل لمن بعده عناية بأمر الدين « الزهاد والعباد » ثم ظهرت البدع وحصل التداعى بين الفرق ، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادا ، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، المحافظون قلوبهم عن طوارق الشبهة باسم «التصوف» واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الاكابر قبل المائتين من الهجرة ، انتهى كلام القشيري .

ونحن لا نستبعد ان يكون للاحداث السياسية التي طمت دواهيها في اواخر العصر الاول والعصر الثاني ، وكذلك الاحداث الاجتماعية التي حولت المجتمع الاسلامي عن وجهته الاولى في الجرى مع طليعة الدعوة الاسلامية على منهاج الفطرة - الانسانية بعيدة عن التفلسف والتعقيدات الفكرية - اثر كبير في تلقيب الفرق وتسمياتها ، واختصاص طائفة معينة من المسلمين بهذه التسمية «التصوف» .

وقد كانت السمة الغائبة على هذه الطائفة التي تميزت بها على غيرها من الطوائف في عنوانها الظاهر هي « احزن » لشعورها بظلم فادح ، واضطهاد جارج ، ومطاردة قاهرة ، فزهدت في رغائب الدنيا وزخارفها ، وسائر مظاهرها ، واعتزلت الحياة ، واستوحشت من محافلها ، وأنسبت الى محاريب الخلوات متعبدة زاهدة ، متقشفة أشد التقشف فرازا الى الله تعالى بدينها .

واذا اتضح هذا - وهو عندنا صحيح - كانت بقية السلف من آل البيت النبوي وأنصارهم من ذوى الألباب الراسخين في العلم والادب الشرعى من أهل الصفاء والاخلاص والظهر والتقوى هم الطليعة لهؤلاء الزهاد العباد ، وتبعهم فني سمتهم من كان صغوه الى طريقتهم في الزهد والعبادة ، ثم انشعبت هذه الطليعة الى شعب متعددة ، وافترقت فرقا مختلفة ، اتسمت كل فرقة منها بسمة نزعته بها الى وصف خاص مميز به تسمت وبلقبه عرفت ، يعمها كلها التقشف والزهادة في ترف الدنيا ، وبقي اسم « التصوف » لخيرهم طائفة ، وأمثلهم فرقة ، وهم الذين أقاموا على عمود الاسلام ، متمسكين بظواهر شرائعه عاملين ببواطن حكمها وأسرارها ، وعنوانهم الأكبر حب آل البيت حبا لا يخرج بهم عن جادة الحق والهدى ، وكانوا بذلك هم خلاصة الفرقة الناجية الذين عرفوا في تاريخ الاسلام بأهل السنة .

وقد كان اول الفرق الاسلامية قبل التشعبات المتكثرة ياغراء

السياسة من هذه الطليعة الزاهدة المتعبدة ، ففي المعتزلة الاوائل عمرو ابن عبيد ، كان لا نظير له يسامي في الزهد والتجافي عن الدنيا ، وكان في اوائل الخوارج أبو حمزة الشاري وهو نسيج وحده في التعبد وقهر النفس .

فلما غمرت السياسة المجتمع الاسلامي وساقته بعضاها انزلت الفرق الى مزالق اندنيا ، ولم يبق على عهد الزهادة سمة عامة ، سوى عباد أهل السنة وشيعة آل البيت ، وسوى الخوارج ممن فارق الطليعة في بعض الاصول أو الفروع .

فأما الخوارج فقد لزمهم اسم الخروج من الطليعة وكانوا طليعتها زهدا أو تعبدا وتجافيا عن الدنيا ، لانهم جهلوا سنة الله في شرائعه ، ففروا بدينهم من الله جهالة على الله ، وتعاليا بالزهد والتعبد ، وقد انبأنا بخبرهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث رائدهم وقائد ضلالتهم ذي الشدية انذى جهل على نبوة الرسالة الخالدة الخاتمة غرورا بتعمق التعبد ، كأنما يتاجر الله مديانا بعبادته ، فيبدل بها ادلال الجفأة المغرورين بالله ، المارقين من السدين من باب « خضراء الدمن » مروق السهم من الرمية . وهم لا يشعرون .

ولما توافقت مواكب الامم بميراثها من العقائد والآراء الناشئة في وثنيات الماضي انسحق على ساحة الاسلام بعد ذبوع الدعوة الاسلامية لتدخل فيه طائفة راعبة أو كارهة كائنة وجدت هذه المواكب الدخيلة نفسها بين المجتمع الاسلامي في لجنة من البشر تموج بأجناس الانسانية وعقائدها وأخلاقها وعاداتها ، وهي تتدافع وتتزاحم وتتواثب ، يسوقها - أحيانا - ميراث العقائد المترسب في حنايا مشاعرها ، وتسوقها - في أحيان أخرى - السياسة الظالمة الى مطامعها متسترة يجلباب الدين .

واذا بالضعفاء أهل المسكنة يدفعون بالمناكب الى الوراء لا يستطيعون دفاعا ولا مواكبة وينظرون حولهم فاذا بأخوة لهم عاكفون على أحلاس الاحزان ، يروضهم حال الامة وهى تهوى مع السياسة المترفة ومسح ميراث الاباطيل في العقائد الوثنية ، فلا يملكون الا الانطواء على أنفسهم يتنفسون زفيرا ، قنعوا من الدنيا بالكفاف أو بما هو دون الكفاف ، وفرغوا أنفسهم أو فرغتهم الحياة لانفسهم فاستراحوا وأراحوا ، لانهم وزنوا الدنيا التي فرت منهم أو فروا منها بميزان الحق ، فأروها كظل شجرة لا يزال يتنقل ثم يمحي ، فعرفوا ان طالب الدنيا فاقدها ، فأعرضوا عنها بقلوبهم أعراض العليم بحقيقتها الذي يراها مسح أهلها كمصيدة الفئران المزودة يطعم شهى ، ان ادركت الدنيا أحسنا منهم أو أدركها أعرض عنها ، فان تعلق به أخذها فقال بها هكذا وهكذا فهي

سبيل الخير ، يسعد بها المحرومين ، ويرحم بها المعزبين ، وإن لم تدركه
ولا هو أدركها في سيره إلى الله ثم يبخل نفسه تأسفا على فواتها ، بل
لا يمد إليها نظره ليعرف أين مراحها ومغداها أولئك هم الصالحون
أهل الصفاء والاخلاص والتقوى ، أنسوا بالله فأفاض عليهم من بحار
إرادته واردات الاشراف ، وانفتحت لهم من ينابيع العبودية عيون المعرفة
فكانوا شهودا لجلال الله وكبريائه ، وهم عن دنيا الناس والاشياء
غائبون .

يقول أبو سعيد الخراز في كتابه « الصدق » : الزاهد في الدنيا حقا
لا يذم الدنيا ولا يمدحها ، ولا يفرح بها إذا أقبلت ، ولا يحزن عليها إذا
أدبرت . ويقول النوري نعت الصوفى السكون عند العدم والايتار عند
الوجود .

أما الذين تزههوا عجزا عن التزاحم على الدنيا ، وتعبدوا يأسا من
نيلها فأولئك الذين بختهم الدنيا لأنهم وزنوها بميزان عجزهم ، ففنعوا
بزيادها اليأس ، وتعبد العجز ، وفرغوا أنفسهم عن تطلباها فأراحوا ولم
يستريحوا وشغلت قلوبهم بوردات كلمع البرق في أديم السراب ، لا
تستقر ولا تنحسر ، تخطط عليهم النور بالظلام كعبث مرده - الشياطين
في أودية الخراب ، لا يدرون مامعهم شيء إن كان معهم من الاشياء شيء
ولا يزالون يسبحون في بحار السراب حتى تتخطفهم شياطين الايطيل ،
وتقذف بهم في أودية الضلال فهم مرة حلوليون ، وأخرى اتحاديون ،
وثالثة اباحيون ، يعبدون ما ينحتون بأصابع الاضلال ، ويدعون
ما يمتثلون بأخيلة الممرورين ، وينطقون بما يخليلون من شطومات المبرسمين

والزهد انصاف في الدنيا بعروق القلب عنها مع القيام بحق شرائع
الله تعالى مخلصا له الدين هو الميزان الصادق في شرعة الاسلام لوزن
« التعريف » الصادق ، بل هو كل ما كان معروفا في صدر الانبياء من
عمل زوى تحت مسمى فيا بعدا (تصوفا) صادقا ، وهو ما كان يعرف
بالمعرفة ، لأن العارف بالله لا يشغله عن الله شيء لا طلب الدنيا ولا -
الهرب منها ، يقول يوسف بن علي في رواية السلمي (١) ، لا يكون العارف
عارفا حقا حتى لو أعطى مثل ملك سليمان عليه السلام لم يشغله عن الله
عن رجل طرقة عين .

ويقول أبو عمر الانطاكي سمعت رجلا يقول للجنييد : من أهل المعرفة
انرام بقولهم : إن ترك الحركات من باب البر والتقوى ، فقال الجنييد :
إن هذا قول قوم تكلموا باستقاط الاعمال ، وهو عندي عظيم ، والذي

يسرق، ويزني أحسن حالا من الذى يقول هذا ، فان العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله تعالى والى الله تعالى رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لهم أتقص من أعمال البرذرة (١)

والاصل فى ذلك حديث حارثة • وهو مروي من طريق صحيح قال: النبى صلى الله عليه وسلم لحارثة : (كيف أصبحت يا حارثة) ؟ قال : مؤمنا حقا يا رسول الله ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : (وما حقيقة إيمانك ؟) •

قال : عزفت نفسى عن الدنيا فأظلمات لذلك نهارى وأسهرت ليلى . وكأننى أنظر الى عرش ربى بارزا ، وكأننى أنظر الى أهل الجنة يشنعون ، والى أهل النار يتعاونون فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (مؤمن حقا نور الله قلبه عرفت فالزم) •

ويقول أبو سعيد الخراز فى كتاب « الصديق » : وأعلى درجات الدين زهدوا فى الدنيا هم الذين وافقوا الله تعالى فى محبته ، وكانوا عبيدا . عقلاء عن الله عز وجل ، أكياسا محبين ، سمعوا الله جل ذكره نعم الدنيا ووضع من قدرها ولم يرضها دارا لأوليائه ، استحيوا من الله عز وجل أن يراهم راكنين الى شىء ذمه ولم يرضه وجعلوا ذلك على أنفسهم فرضا لم يبتغوا عليه من الله عز وجل جزاء ، ولكن وافقوا الله فى محبته كرما ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا •

ويروى أبو سعيد فى معنى حديث حارثة عن عمر بن عبد العزيز أنه نظر الى شاب مصفر ، فقال : « ما هذا الصغار يا غلام ؟ قال : أسقام وأمراض ! قال : لتخبرنى ! »

قال : يا أمير المؤمنين ، عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها وحجرها وكأننى أنظر الى أهل الجنة يتزاورون ، وأهل النار فى النار يتعاونون •

فقال له عمر بن عبد العزيز : أنى لك هذا يا غلام ؟

قال الغلام : اتق الله يفرغ عليك العلم فراغا •

وقد أورد أبو سعيد رضى الله عنه فى كتابه الشذالا يورده أهمل البطالة والركون الى الدنيا والاستغراق فى حبها وجمعها ، وأجاب أحسن

(١) الرسالة الشريفة .

احابة ، وتلخيص ما قاله : فكيف ملك الانبياء عليهم السلام الاموال والضياع . . والصالحون من بعدهم ؟؟

فقال : هذه مسألة كبيرة ، وفيها كثير .
اعلم أن الانبياء عليهم السلام والعلماء والصالحين من بعدهم رضى الله عنهم آمناء الله تعالى فى أرضه على دينه ، وعلى أمره ونهييه ، وفهموا لماذا خلقهم . . فوافقوه فى محبته . . ثم وقفوا عند ذلك موافق العبيد الالباء عن القابلين عن الله ، والحافظين لوصيته . . . فسمعوا الله تعالى يقول : (آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) . . . وقال : (يا أيها الذين آمنوا انفقوا من أموالكم) . . . فآيقن القوم أنهم وأنفسهم لله تعالى ، وكذلك ما حولهم وملئهم فانما هو له ، غير أنهم فى دار اختيار . . .

فمن ملك من أهل العمل عن الله تعالى وأهل الحساب شيئا من الدنيا فهو معتمد أن الشيء لله عز وجل لا له ، الا هو من طريق حق ما خوله الله تعالى وهو مبلى به حتى يقوم بالحق فيه . . .

فانقوم كانوا خارجين من ملكهم فى ملكهم ناعمين بذكر الله وعبادته غير ساكنين الى ما ملئوا ، لا يستوحشون من فقده ان فقدوه ، ولا يفرحون بالشيء ولا يحتاجون الى العلاج والمجاهدة فى اخراجه ، . . . وهذا النبي صلى الله عليه وسلم يأتية ملك من السماء لم ينزل قتل قبل ذلك فيقول له : هذه مفاتيح خزائن الارض تسير معك ذهباً وفضة . . فلم يختار النبي صلى الله عليه وسلم وقال أجوع مرة وأشبع مرة .

وهذا أبو بكر - حين حث النبي صلى الله عليه وسلم على الصدقة - جاء بماله كله ، لانه كان أقوى القوم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (ما خلفت لعيالك ؟) قال : الله ورسوله ، ولى عند الله مزيد ، ثم جاء عمر رضى الله عنه بنصف ماله ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما خلفت لعيالك ؟ قال : نصف مالى ، والله عندي مزيد .

قالت : فانظر الى قول الصديق الاكبر وهو فى مقام الجمع بين انهاء عن نفسه وماله ، والبقاء بالنسبة لصدق رجائه فى الله تعالى : (ولى عند الله مزيد) فهو مشغول بالله غنى بما عند الله . ثم انظر الى قول الفاروق وهو فى مقام الصدق مع الله : (والله عندي مزيد) والفرق بين الشريخين هو فرق ما بين المقامين .

قال أبو سعيد : ثم عثمان ، يجهز جيش العسرة كله بجميع ما يحتاج اليه ويحضر بشر رومه .
أفلا ترى أن انقوم انما كانوا معدين الشيء لله تعالى ؟؟ . . . وهذا

أبو بكر رضى الله عنه حين جاءته الدنيا راغمة من حلها لم يرفع بها رأسا . وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين جاءته الدنيا راغمة من حلها كن طعامه الخبز والزيت ، وكان في ثوبه يضع عشرة رقع به بعضها من آدم وقد فتحت عليه كنوز كسرى وقيصر ، وهذا عثمان رضى الله عنه كان كأنه واحد من عبده في اللباس والزي . ولقد روى عنه أنه رأى خارجا من بستان له وعلى عنقه حزمة من حطب فقيل له في ذلك ؟ فقال : أردت أن أنظر نفسي هل تأبى ؟

وهذا على بن أبى طالب رضى الله عنه فى الخلافة قد اشترى ازارا بأربعة دراهم ، واشترى قميصا بخمسة دراهم ، فكان فى كفه طول فتقدم الى خراز فأخذ الشفرة فقطع الكم من عند أطراف أصابعه ، وهو يفرق الدنيا يمنا ويسرة .

وهذا الزبير رضى الله عنه يخلف حين مات من الدين مائتى ألف أو أكثر ، كل ذلك من الجود والسخاء والبذل ، وهذا طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه يعطى حلى أهله لمن سألته .

فهذا يدل على أن القوم كانوا كما قال الله تعالى حين أمرهم فقال (انفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) .

هذا التصوير الذى صورنا به الجو العام فى سيرة المسلمين الاولين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم من زهاد الصمد الاول ومتبعيهم من العزوف عن الدنيا والصدق مع الله فى معرفة جلال كبريائه ، والقيام بحق شكره بالتعبد له فى سائر حركاتهم وسكناتهم على قدم الاخلاص ، والذى صورنا به زهادة اليائسين وتعبد العاجزين عن المنافسة على الدنيا وتسلط شياطين الاهواء على عقولهم وأفئدتهم حتى أخرجتهم الى وثنيات مظلمة زعموها فتوحات مشرقة هو - فى نظرنا - واقع ما يصح أن يطلق عليه اسم « التصوف فى تاريخ الاسلام » لأن اللون الاول منه وهو لون الزهادة الصادقة والتعبد الخالص ، واليقين المصفى من حظوظ النفس هو الذى يعرفه دين الاسلام وتعرفه شرائعه ، أما اللون الثانى وهو لون الزهادة اليائسة والتعبد القاتم فهو اللون الوافد من خارج الاسلام مع العقائد الوثنية التى حملتها طوائف الزاحفين الى ساحة الاسلام بقلوب مليئة بالباطيل ، وهذا كله تعرفه طبيعة الاسلام ، ولا تقره ولا ترضاه مهما تأول المتأولون .

فالتصوف فى صدر الاسلام - على غربة هذا اللفظ عن الاسلام واللغة العربية - كان عملا محضاً ، يقوم على اخلاص التعبّد لله تعالى فى كل أمر من أمور الدين والدنيا ، وهذه الدنيا عندهم دين ، لانهم

يأتون ، يأتون منها وقلوبهم وجبة انهم الى ربهم راجعون ، لا يسارعون
الا الى الخيرات وهم لها سابقون ، ويقوم على الشفقة على خلق الله والرحمة
لهم ، يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان امرأة بغيا رحمت
كلبا وجدته يلهث من شدة العطش ، فشقت خمارها لترفع له الماء من
البئر فسقته فطلع الله عليها فغفر لها ، ويسمعون منه صلى الله عليه
وسلم ان امرأة دخلت النار في هرة ، حبستها فلم تطعمها ولم تتركها
تأكل من خشش الارض .

ويرويه صلى الله عليه وسلم يحلم على اعرابي جاءه يسأله شيئا من
متاع الدنيا فيغلظ الاعرابي القول للنبي صلى الله عليه وسلم ، فيهم
بعض الصحابة ليبطش به ، واذا بالنبي صلى الله عليه وسلم ينهه
صاحبه ذا العزيمة الباطشة ثم يقوم صلى الله عليه وسلم الى بيته ويزيد
في الاحسان الى الاعرابي حتى يبدل غلظته لينا ولطفا ، وجفوته سمحة
ودعة ، ثم يقول له : ارضيت ؟ فيقول الاعرابي : نعم رضيت ، فجزاك
الله من اخ وعشيرة خيرا ، فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم : انك
فلت ما قلت ، وفي نفس اصحابي عليك شيء ، فاخرج اليهم : وقل
امامهم ما تقول ، ويخرج الاعرابي راضيا ، ويعرف هذا الرضا في وجهه
اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتسكن نفوسهم ، ويرشدهم
النبي صلى الله عليه وسلم الى ثمره التربية العملية للنفوس البشرية ،
فيقول لهم : لو تركتكم وما كنتم تريدون به لدخل النار .

فهذا درس عملي ، قل فيه الكلام وكثر فيه العمل ، وكان حديث
اقارب فيها ابلغ من براعة الالسننة ، حيث ملاها رحمة وسماحة
وغرس فيها حب الجود والبذل وزينها بالحلم ، وجمع لها مكائرم الاخلاق .

درس يجعل النفس الانسانية مرآة صادقة لتلقى صورة الخير
والبر والشفقة على عباد الله ، لانهم عباد الله .

درس يتعلم منه حاضروه في مدرسة النبوة والذين يسمعون
بلاذان قلوبهم ممن يقتفى آثارهم كيف يقوى على دوافع بشريته ، ويرتفع
فوق مستوى دواعي غرائزه ، فيحاسب نفسه على الخطرات والهواجس
وفلتات الكلمات ، فضلا عن كبير الاعمال ، وعظيم الاقوال ؛ وذلك ان
محاسبة النفس هي الدعامة الاولى في بناء الاخلاص ، والاخلاص لباب
العبودية ، والعبودية هي الباب الى حضرة القدس والشهود ، بقول أبو
سعيد الحسن البصري : ان المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله عز وجل ،
ومن دقيق المحاسبة للنفس فيما يبدو أمرا صغيرا عنه الذين لا يلاحظون
أنفاسهم لله تعالى ، وكبيرا عظيما عند من ادرعوا بالتقى وذل العبودية
ما رواه المحاسب في « الرعاية » من طريق أبي داود الطيالسي عن عبد

العزیز الماحشون عن هشام بن عروة عن عائشة رضى الله عنها : ان ابا بكر رضى الله عنه قال لها عند الموت : ما أحد من الناس أحب الى من عمر ، ثم قال لها : كيف قلت ؟ قالت : قلت : ما أحد من الناس أحب الى من عمر ، فقال : لا ؛ ما أحد من الناس أعز على من عمر . قال المحاسبى : فتدبر كلمة قالها ، ثم أبدلها بكلمة غيرها .

وبهذه المحاسبية للنفس يكون وقوفها أبدا على قدم الاخلاص لله فى العبودية فتطهر من أدران الرذائل الحيوانية ، وتصفو من كدورات الظلمات المادية ، وتتحرر من رق الشهوات والرغائب ، وتخلص من قيود الانانية منطقية فى بقائها الانسانية الكامل الى آفاق الاشراق الروحية ، وتخضع لها جوارح الجسم طواعية منسجمة مع توجهات القلب بكلية الى الله تعالى انسجاما يستوى فيه ظاهر الانسان وباطنه فى سائر حركاته ، فيحببه الله حبا يسخره به لمضائه ، فلا يراه الا حيث يحب ويرضى ، ويحب العبد الله حبا لا يرى معه فى الوجود غيره ، واذا أحب الله تعالى عبدا كان له سمعا يسمع به وبصره يبصر به ، ويذا يبطش بها ، وذلك نهاية ما يطلبه العارفون ، وهو الذى يدندن حوله العابدون السائحون ، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء .

أولئك هم الادلاء على الله لا يرجون أحدا فى معصية الله ، ولا يقنطون أحدا من رحمته يرضون أبدا بالصبر على البأساء والضراء ، والرضاء بالقضاء ، والشكر على النعماء ؛ يحببون الله تعالى الى العباد ، يذكرهم ايدية واحسانه ، ويحثون العباد على الانابة الى الله تعالى ، علما بعظمة الله تعالى وعظيم قدرته ، وعلما بكتابته وسنته ، فقهاء فى دينه علماء بما يحب ويكره ، ورعين فى التبداع والاهواء ، تاركين التعمق والاغلاء ، مبغضين للجدال والمراء ، متورعين عن الاغتياب والظلم والاذى ، مخالفين لاهوائهم ، محاسبين لانفسهم ، ، ملكين لجوارحهم ورعين فى مطاعهم وملابسهم وجميع أحوالهم مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، مجتنبين بالبلغة من الاقوات ، متقنين من المباح ؛ زاهدين فى الحلال ، مشفقين من الحسب ، وجانبين من المعاد ، مشغولين ببيتهم ، مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم ، لكل امرئ منهم شأن يغنيه ، علماء بأمر الآخرة وأهويل القيامة ، وجزيل الثواب وأليم العقاب .

ذلك أورثهم ، الحزن الدائم ، والهم المضنى ، فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها (١) .

على هذا الصراط كان أئمة الهدى من أعلام مدرسة النبوة المحمدية وأتباعهم الذين لم تشوش البدع الضالة عقائدهم ، ولم تدنس الاهواء والشهوات أعمالهم .

(٢) من كلام الخازن المحاسبى نقلناه من مقدمة كتاب الرعاية التى كتبها إمامنا الاستاذان الفضلان عبد الحميد محمود ، وطه عبد الباقي سرور

مضوا طاهرين مطهرين على السميت الاقوم ، والنهج الاعدل الاحكم
لهم تملهم الدنيا عن سبيل العبودية لله ، مخلصين له الدين ، ولم يميلوا
معها اعتزاز بزخارفها ، تركوها بشهواتها ولذاتها بجسومهم وأرواحهم
فى غير رضا الله ، وأقبلوا عليها يجدها وشنظفها بقلوبهم وعقولهم فى رضا
الله ، واتخذوها ملتيتهم الى ساحة الاقبال على الله ، عقلوا عن الله بفضله
أوامره ، وفقوا بتوفيقه نواحيه ، جعلوا الامر والنهى سياج اعمالهم ،
بهما يتحركون ويسكنون ، لا يراهم الله حيث نهاهم ، ولا يفقدهم حيث
أمرهم ، علماء بالله يخوضون بحار العلوم والمعرفة تفقها فى دين الله ،
واستطلاعا لجلال الله فى صنائعه ، يجاهدون أعداء الله ليردوهم الى حظيرة
حبه ، شفقة عليهم من سخط الله وغضبه ، ورحمة بهم ان ينالهم أليم عقابه
يسكنون تحت وطأة الاقدار رضا بقضاء الله ، يقومون فى حرركاتهم بنعمة
الله ، ويقعدون فى خلواتهم لذكر الله ، قلوبهم معلقة بوشائج الرجاء
فى رحمة الله ، والخشية من مكر الله ، يخافون ربهم من فوقهم ، فلا تطمئن
أنفسهم الى عمل من الاعمال ، يظلمون نهارهم ويسهرون ليلهم ، توابين
أوابين ، قواءين بالقسط ، شهداء الله على أنفسهم بالنقص والتقصير
فى جنب الله ، يسمعون كلام الله ، وهم يبكون شوقا الى ما طالعوا من
غيب الله فيما أعده من جزاء انرضا والرضوان الاحبابه وأوليائه ، وترتعد
مفاصلهم فرقا من سخط الله ، تفيض أعينهم بالدمع حزنا الا يجدوا
ما ينفقون فى سبيل الله ، عكوف فى مجالسهم على محبة الله ، مصفرة
وجوههم ، نحيلة أجسامهم ، يابسة جلودهم ، يراهم الجاهل بالله عن
غفلة منهم فيظنهم فى سياق الموت من خشية الله ، لا يطفىء نور يقينهم
نور علمهم مرهفة اسماعهم الى نداء الحق فاذا سمعوه انتفضوا كأنهم
أرواح منطلقة من سجنها ، يحسبهم الغافل عن حقيقتهم اذا رآهم فى
انتفاضتهم جنة تتوالب فى ملاعبها ، اذا استنفروا جهادا لاعلاء كلمه
الحق ، نفروا باذلين أنفسهم لله كأنهم أسدا اسرى تدفع عن عرنها ،
وتدود عن أشبائها ، أشجع الناس قلبا ، وأسخاهم لله نفسا ، فرحين
بنداء ربهم ، يقتلون ويقتلون ايقانا بوعده الله ، مستبشرين بما وفوا
بعهد الله ، تدور وجوههم اشراقا اذا استشهدوا فى حب الله كالقمر
فى تمامه ، يشرق فى سماء صافية الاديم ، يقينهم محصن بالعلم ،
وعلمهم معتمد على اليقين ، ايمانهم شبهود ، ومنتهى معرفتهم بالله هو
عجزهم عن الوصول الى حقيقة وراء - آيات الله ، يقول الصديق الأكبر
فى تصوير نهاية العارفين (العجز عن درك الإدراك إدراك) انتزاعا
من فيض اشراق النبوة فى أدب العبودية (لا تحصى ثناء عليك ، أنت
أعز أئنيت على نفسك) .

وتفسير هذا : ان أرقى مقامات القرب هو مقام العبودية ، وهو

خصيصة الانبياء فى اضافة التخصيص جملة ، لسائر الانبياء ،
وتفصيلا مميزا لاولى العزم من الرسل ، ومنتهى مقام العبودية هو
حجاب الادب الذى لا يهتك ستره بالتطلع الى سبحات الجلال الا مطرود.
محروم .

وبهذا الادب الاشهم الاعظم اثنى الله تعالى على حبيبه سيد الانبياء
 والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم بعد الثناء عليه بتخصيصه باضافه
العبودية بعد الثناء على نفسه بتسبيح ذاته وتقديس صفاته فى قوله
(سبحان الذى اسرى بعبده) وكان لذلك الثناء الاشهم فى مقام (قاصد
قوسين أو ادنى) بقوله عز شأنه (مازال البصر وما طغى) .

ومن ثم كان ابو بكر الصديق رضى الله عنه هو الصديق الاكبر ،
والتلميذ الاول لامام المقربين وسيد العابدين ، لان الله تعالى جمع له ما تفرق
من معانى العبودية وأسرار القرب فى سير العارفين العابدين المقربين
من خاصة المؤمنين ، فهو المثل الاعلى لهم فى حياته وأعماله ، وسره وأعلانه ،
كما جمع الله تعالى لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع ما تفرق
من نعوت العبودية الخاصة فى جميع الانبياء والمرسلين .

ويتفاوت حظ العابدين فى أدب العبودية ومراتبها بتفاوت درجات
القرب من منبع الفيض فى العلم بالله تعالى ، ولما كان ابو بكر رضى الله
عنه أقربهم الى سيدهم صلى الله عليه وسلم كان حظه منها الغاية التى
يقف دون ادراكها كل عابد من خاصة المؤمنين .

وتأتى بعد ذلك درجات الصحابة اجمعين متتابعة تتابع مراتبهم
من القرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما ناله كل واحد منهم من
نصيب فى العلم بالله تعالى ، وليس احد منهم رضى الله عنهم الا وله من
ذلك حظ يفوق حظ كل ولى لله جاء بعدهم لاختصاصهم باشراف ارواحهم
برشحات انوار النبوة ، واعظمهم فى نفحات القرب الراشدون على مراتبهم
فى الخلافة ، وهى أجل مراتب الولاية والعبودية .

ولهذا كانت سيرتهم فى مجال حياتهم وسائر أعمالهم ، وكافة
حركاتهم وسكناتهم فيما يأتون ويذرون هى الميزان لوزن حقيقة «التصوف»
الذى يعرفه الاسلام - بحقيقته العملية التى تمثلت فى الزهد الواجد
والورع الصادق ، والتعبد الكامل ، والاخلاص الباعث على البر والاحسان
لكافة الخلق ، لانهم عيال الله ، واحبهم اليه أكثرهم نفعا لعياله .

وسيرة الصحابة رضى الله عنهم وخاصة الراشدين مدد من سيرة
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم المعبر الى اشراف انواره من أراد
العبور الى منازل القرب ، والطرق كلها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

مسدودة الا طريق اصحابه الناقلين الى الناس سيرته بسمتهم واعمالهم
كما ان الطرق كلها الى الله تعالى مسدودة الا طريق رسول الله صلى الله عليه
وسلم في سيرته وسمته وسائر احواله وافعاله واقواله .

فالتصوف الذى يعرفه الاسلام عمل تطبيقي فى واقع الحياة لسيرة
رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة خاصة اصحابه ، وقد أخذهم عنهم
بحقيقته - لا باسمه ولفظه - العابدون من تلاميذهم اهل المعرفة والعلم بالله
ثم تلقاه مثلاً حية من العمل فى سيرة هؤلاء تلاميذهم الذين جاءوا من
بعدهم من اهل التقى واليقين ، وكان هؤلاء اولئك على نهج استاذهم
ومربيهم من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعملون كثيراً ، ولا
يتكلمون الا قليلاً ، فلم يعرفوا للتصوف علماً خاصاً يميزه عن علمهم بالكتاب
والسنة ، ولم يعرفوا له نظاماً خاصاً يميزه عن نظامهم فى حياتهم
وسيرتهم التى عليها درجوا بين صفوف اصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، ولم يعرفوا له طائفة خاصة تمتاز باوصاف الا توجد فى كافة
صالحى المؤمنين ، يكره أحدهم ان يتكثر بالناس يتبعونه ، ويمشون خلفه
خشية العجب على نفسه ، روى ان محمد بن سيرين كان اذا خرج الى
مكان يقصده وأراد بعض اصحابه ومريديه أن يصحبه يقول له : ان لم
يكن لك حاجة فارجع .

ويكره أحدهم الا يجد السعى فى الحصول على قوته وقوت عياله
بل فى الحصول على أكثر من ذلك صيانة لدينه وصلة لرحمه ، روى ان
سعيد بن المسيب كان يقول : لا خيرة فيمن لا يجمع الدنيا يصون بها
دينه وجسمه ، ويصل بها رحمه وكان رضى الله عنه يتجر فى الزيت ،
ولا يقبل صلات الخلفاء والولاة .

ويكره أحدهم ان يتميز على سائر المسلمين فى زيه وشكله ومكانه
فى مجلسه ، ويكره أحدهم ان يرى قعيد المساجد وغيره يسعى عليه يقوته
ويمونه لا يدري من اين جاء هذا الثقت ، يقول ابراهيم بن ادهم : (اطب
مطعمك ولا عليك ان تقوم الليل ولا تصوم النهار) وابن ادهم هذا كان
من أبناء الملوك ، لاحظته عيون العناية الالهية ، فخرج عن ملك الدنيا الى
الله تعالى يطلبه فى عز طاعته ، وكان يأكل من كسب يده ، يعمل للناس فى
الحصاد ، ويضرب لهم اللبن من الطين ، ويحرس البساتين .

وكانوا يكرهون التماوت فى الحركات تظاهراً بانثقى ، وانما كانوا
يحيون حياة الناس ، بكل ما فيها من جد وقوة فى صالح العمل ، يرى
أحدهم ان خدمة فرسه الذى اعده للجهد فى سبيل الله ومسح أعرافه من
اجل انواع العبادات ، وكانوا يرون السعى على أرامل المسلمين وخدمة
يتاماهم وضعفاءهم تحنثاً وتقى ، يأملون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ،

ويجهرون بكلمة الحق في وجه الظلمة ، لا يبالون اكان الموت يسبقهم ام هي تسبقه فتصدع قلوبهم ، لا يرون ابدا على باب أمير أو ذى سلطان ، فإذا اضطروا الى شيء من ذلك نصحوا لله ورسوله ، يردونه هداياهم ولا يقبلون شيئا من أموالهم .

وكان فيهم آلام العادل ، والخليفة الراشد والفائد الشجاع والعالم الرباني ، والصانع الماهر ، والتاجر العسوق ، والزارع المحسن ؛ فهم في الامة روحها الذي تحيا به ، وعقلها المدبر ، وقلبها النابض باخبر وشعورها الحساس ، يستنقى الغمام بدعائهم ، ويستجلب النصر على الاعداء بأسياهم وبركاتهم ، يفلون عند المغنم تعففا ، ويكثرون عند سماع الهيعة نجدة وشجاعة ، نفوسهم راضية ، واخلاقيهم مرضية ، لا يحدثون الناس بما لا يفهمون ولا يفتنونهم بأقوال لا تبلغها عقولهم ، ولا تصل اليها مداوكتهم ، ينطقون بالحكمة ويدعون الى الله بالموعظة الحسنة .

هم الرعيل الاول من صفوة المؤمنين في عهود صفاء الدين ، وطهارة اليقين ، وفقاء الشريعة من غلس الفلسفات الوافدة ، تحمل في طياتها العقائد النابتة في منابت التوثنيات المفلسفة محمولة على مراكب ذوى السلطان ، وركائب السياسة التي تبطنها طوائف الطامعين الطامحين ، فخالطوا قضاياها بقضايا الدين ، واحاطوا هذا الخليط المتناثر بمنطق دخيل براق استهوى بعض العقول ، فركنت الى مقاييسه ، تقيس بها أمور العلم والمعرفة ومحصول الافكار ، محاولة ان تخضع لمعاييرها سنن الله في شرائعه التي لا يستقل العقل الانساني بمدركاتهما ، بل يعجز هذا العقل في بعضها عن أصل ادراكها .

ومن هنا انشعب التفكير الاسلامي :

أولاً - الى تفكير عقلي افتتن بالعقل وعظمه جدا حتى كاد يؤلهه ، وسلمه مقادته ، وحكمه في النصوص التوجيهية يتأولها اذا لم يطق فهمها ووضعوا لذلك قاعدة ادخلوها على أصول الدين فأصبحت قاعدة من قواعد: اذا تعارض النص والعقل وجب اتباع العقل وتأويل النص . ولا ندري كيف قبل مفكرو المسلمين من الاخرار أهل الديانة والمعرفة بالله وشرائعه هذه النقائذ على اطلاقها ولماذا لم يضعوا في مقابليها : اذا تعارض النص القطعي مع العقل وجب تعجيز العقل ، لان النص القطعي الهى قد يعجز العقل عن ادراك حقيقته انيوم وتكشف له غدا ، والعقل مهما بلغ من القوة فهو محدود الغاية في التفكير قاصر باعترائه عن ادراك كثير من الحقائق التي يعترف بوجودها ولا يدري - حقيقتها .

يمثل هذا الفريق من ذوى الفكرة العقلية جند طوائف المغتزلية والمتفلسفة فالعقل عند هؤلاء معصوم من الخطأ ، مطلق العنان لا يقف

عند جد في التفكير والحكم ، وهذا غلو مفرط كان له خطره في معركة الفكر الاسلامي ، ولا يزال هذا الخطر قائما في أفكار المجددين المعاصرين .

ثانيا - الى تفكير نصي يلتزم حرفية النصوص ، والا يفسرها الا بالفاظها ، ويمثل هذا الفريق بعض المحدثين والفقهاء ، وهؤلاء كانهم قابلوا غلو العقليين يغلو مثله ، يقف منه على طرف الجانب الآخر ، فاعطوا العقل حقه ، لان الله تعالى جعل العقل مناط التكليف ، فلا تكليف اد بعقل والتكليف لا يتم الا بفهم استداليف ولم يجعل الله تعالى للاستدلال وسيلة لفهم شرائعه التي كلفها عباده سوى ما منحهم من عقل ، ووظيفة للعقل منها ادراكها . جملة في اصولها كلها وادراكها تفصيلا في الكثير من جزئياتها ، وقد يقف في ادراك القليل منها مسلما لها ، او متربصا بالفتح بفهمها .

وهؤلاء يتفاوتون في استمسكهم بالنصية الحرفية ، فبعضهم بغلى جدا فلا يبيح لعقله ادنى حركة نحو فهم النص على غير ظاهره ، مهما كان هذا اعناهر ، ومن هؤلاء طوائف المشبهة والمجسمة وهم اشرار المفكرين ، وبعضهم يبيح لعقله ان يجوس خلال النصوص في اذنة وحذر ، يتأول منها ما يخالف الاصول المتفق عليها والتي قد اوضححتها اصول اخرى جاء فيها صريحة ، ومن هؤلاء بعض الحنابلة وسائر الظاهرية .

ثالثا - الى تفكير لا يبغض العقل حقه من الادراك ، ويطلق له العنان في دائرة استطاعته المحدودة ، فهو في نظر هؤلاء قاصر عن الاستقلال بادراك كثير من أمور الدين الاصولية والفرعية ولكنه قادر على فهمها اذا جاءته تكليفا .

ويمثل هؤلاء متكلموا أهل السنة من الاشاعرة وبعض مفكرى الفقهاء الذين اضطروا الى مجابهة الفرق الاخرى من طوائف المعتزلة وغيرهم في محافل الجدل ليجادلوهم باساليبهم وقوانين منطقهم ، حفظا على عقائد الامة ان تشوشها شبه المتفلسفة وان يفسدها اعتساف التأويل .

وحينئذ رأى أهل العلم بالله من زهاد الامة وعبادها ان تيار الجدل انفسى كاد يجرف الناس ويشغلهم عن اخلاص العمل لله تعالى ، فلا بد من صيحة قوية منظمة ترد الشاردين عن حظائر المعرفة ، وترشد الحائرين الى الجادة ، وتهدى الضالين الى الصراط المستقيم ، صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الارض ، ورأوا أنهم لا يستطيعون القيام بهذا الواجب الذى يحتمه داعى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر - وهو من اعظم خصائصهم - الا اذا خرجوا الى الناس من محاريبهم ، يدعونهم الى ربهم بأسلوب علمي منظم يجمع بين العلم والعمل ، وهذا يتطلب منهم النظر في نصديح الكتاب والسنة ، نظرا يربط كل نص بموضوعه ،

ويضعه تحت عنوانه فى بابہ تبیاناً لخدمته ، تقریباً للعقول والقلوب بما يشبه صنيع الفرق المتجادلة فى الزى والشكل ، وإن كان يخالفه فى الحقيقة والموضوع ، بعيدین عن میادین الجدل والمراء .
لذلك أخذ فريق من اعلامهم يضع النصوص مواضعها من حقائقها ،

منها على معانيها مشيراً الى اسرارها ، مبيناً طريق العمل بها ، شارحاً اثارها ، تستشهداً بمواقف السابقين من صالحى الامة فى أشباهها ، تحبيباً للعمل فى طاعة الله والاخلاص له واستمالة للقلوب ، لم يخرجوا فى كتاباتهم ومؤلفاتهم عن الزهد ، والورع ، والاخلاص ، ومحاسبة النفس بأسلوب بين محكم ، لا نجد لهم كلمة موهمة ، ولا عبارة محيرة ، يكسب كلامهم نور الحق وضياء الهدى .

وكان من حملة هذا العلم المنظم فى الكتب ، المضبوط فى المؤلفات ، نقياً خالصاً ، قرآنياً نبوياً أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى ، وأبو سعيد الخراز ، وأبو طالب المكي ، واضرابهم من سلف زهاد الامة وعبادها ، وهم وإن اختلفوا روحانية ونفساً وصحة فى التأليف وإيراد النصوص متفقون فى الاتجاه والغاية ، ومتسلسلون فى الحياة والزمن .

لم تتركهم الفرق المتشعبة من مذاهب المنطقيين العقليين ، والنصبيين الحرفيين ، والفقهاء والمتكلمين المعتدلين ، وسائر الفرق الاخرى المنحرفة عن أصول الدين ، يسиров فى طريقهم داعين الى الله تعالى مخلصين له الدين ، لا يمارون ولا يجادلون ، ولكنهم تناولوهم بأقلامهم واستنتههم يناقشونهم وينقدون طريقتهم ويعترضون أسلوبهم كأنهم فرقة من الفرق ، وكان سلوكهم مذهباً من مذاهب الفكر الجدلى ، ولم يقصد اهل العلم بالله تعالى من الرعيل الاول بمؤلفاتهم ان يكونوا طائفة او فرقة او اصحاب مذهب من المذاهب ، يجادلون فيه ، ويناضون عنه ، وانما كان قسدهم الدعوة الى الله ، وضبط ابواب العلم بالله ، واكتشفه عن حكم فرائضه وتعباداته ، وتحبيبها للناس ، اداء لحق الله فى نصيحة عباده .

ولهذا لم تكن لهم مؤلفات فى القرن الاول وكانت مؤلفاتهم نادرة جداً فى القرن الثانى لا تخرج عن كلمات مجموعة من أقوالهم فى مجالس تذكيرهم ، وحلقات وعظه نقلها عنهم مريدوهم وتلاميذهم ، ولم تظهر لهم مؤلفات مقصودة الوضع على نهج المؤلفين الا فى القرن الثالث الهجرى . وهو العصر الذى احتدم فيه الجدل بين الفرق ووقعت فيه على اهل العلم بالله المحن الشداد فصبروا عليها وصابروها حتى كشف الله عنهم غمرتها وفى هذا العصر علا صوت الفلاسفة واهل الاعتزال من مؤلهى العقل على سائر الفرق ، وفيه بدأ متكلموا اهل السنة من الذين يجمعون بين النص والعقل يخوضون معهم بحار الجدل العميق بمنطقهم المتفلسف الذى يفسر

على عامة الأمة من أوساط العلماء فمن دونهم فهمه والاعتماد عليه في تصحيح العقائد والعمل بشرائع الله تعالى .

ويظهر انه كان في طليعة من وطد لهم قواعد التأليف المنظم الشامل في علوم الزهد والورع والاخلاص واقام لطريقتهم دعائمها ، ووطأ لهم سبيله الامام ابو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى وفي كتابه « اشرعاية ما يشهد بذلك فهو اول كتاب جامع لابواب السلوك العملى فى أسلوب علمى على نهج الزاهدين العباد من اهل العلم بالله وكان المحاسبى معاصرا للامام احمد بن حنبل ، وكان عليهما بظاهر الشريعة واصول اندين على قواعد المتكلمين وخبيرا حاذقا بعلوم المعاملات والدلالة على الله وقد رد على المعتدعة فأنكر عليه الامام أحمد فقال نه الحارث الرد على المعتدعة فرض فقال احمد : نعم ، ولكنك حكيت شبهتهم أولا ثم أجبت عنها ، فلم يؤمن ان يطالع الشبهة من تعلق ذلك بفهمه ولا يلتفت الى الجواب او ينظر الى الجواب ولا يفهم حقيقته .

وكن المحاسبى اتجه (بعد ان رأى أهل زمانه مضيعين لرعاية حقوق الله ، وهو الامر الذى تولى الله عليه أنبياءه واحباءه ، لانهم رعوا عهداه وحفظوا وصيئته) (١) الى علوم المعاملات وحمل لواء الصوفية وكانوا فى عصره قد نظموا عقدهم فى طائفة تدعو الى الله بالعلم والعمل ، فأنكر عليه وعابهم أيضا الامام احمد بن حنبل فلما سمع منهم دون ان يشعروا استغفر الله من انكاره عليهم ، قال الشعراني فى الطبقات (- قيل لاحمد ابن حنبل رضى الله عنه ان الحارث المحاسبى يتكلم فى علوم الصوفية ويحتج لها بالآتى والحديث ، فهل لك ان تسمع كلامه من حيث لا يشعر ، فقال : نعم ، فحضر معه ليلة الى الصباح ، ولم ينكر من احواله ولا من احوال اصحابه شيئا ، قال الامام احمد : لانى رأيتهما لما اذن بالمغرب تقصدم فصلى ، ثم حضر الطعام فجعل يحدث اصحابه ، وهو يأكل ، وهذا من السنة ، فلما فرغوا من الطعام وغسلوا أيديهم جلس اصحابه بين يديه ، وقال : من اراد منكم أن يسأل عن شيء فليسأل ، فسألوه عن الرياء والاخلاص وعن مسائل كثيرة فأجاب عنها واستشهد عليه بالآتى - والحديث ، فلما مر جانب من الليل أمر الحارث قارئاً يقرأ فقرأ فبكوا وصاحوا وانتحبوا ثم سكنت القارىء ، فدعا الحارث بدعوات خفاف ، ثم قام الى الصلاة ، فلما أصبحوا اعترف احمد رضى الله عنه بفضلته ، وقال : كنت اسمع عن الصوفية خلاف هذا ، استغفر الله العظيم . (٢)

وكان ابو سعيد احمد بن عيسى الخراز رضى الله عنه اماماً من أئمة

(١) الدعاء للمحاسبين .

(٢) الطبقات النكبرى للشعراني .

الزهد والورع ، أهل المعرفة والعلم بالله تعالى ، وهو محاضر للإمام المحاسبي ، فكلاهما من أئمة القرن الثالث الهجري وقد وضع أبو سعيد في بناء الصوفية المنظمة دعامة من دعائم التأليف في علم المعاملة والسلوك . وكتابه (الطريق إلى الله • أو كتاب الصدق) على صغر حجمه آية من آيات المصنفات الصوفية ، خلع الله عليه حلية القبول ، نحسب أن قارئه لا يخرج من قراءته إلا على شيء من نور ربه ، وهذا من أثر الإخلاص في العلم ، وهو يدل بقرب شبهه من « رعاية » المحاسبي رضي الله عنه على وحدة المسلك في صوغ الحقائق الصوفية ، مقرونة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية في أظهر دلالتها، ومعها أقوال الصحابة والتابعين كتطبيق واقعي للنصوص، وهذه كانت سمة « التصوف » في عصر هذين الإمامين •

والحارث المحاسبي ، وأبو سعيد الخراز مثلاً من اصدق الأمثلة في عصرهما على الصوفية المنظمة العالية التي لم تفارق السمات الاقنوم من الأدب الشرعي والقيام بحقوق الله تعالى على دعائم الشريعة المطهرة ، على الرغم من الصوفية « تطورت » واتخذت لنفسها في القرن الثالث الهجري كيانا خاصا له معاملة التي تدل عليه ويعرف بها ، واصبحت طائفة لها علومها ورسومها وسلوكها

يقول المحاسبي في كتابه (البوصايا) ثم اني وجدت باجتماع الامة في كتاب الله المنزل أن سبيل النجاة في التمسك بتقوى الله ، وإداء فرائضه ، والورع في حالته وحرامه ، وجميع حدوده ؛ والإخلاص لله تعالى بطاعته والتأسي برسوله صلى الله عليه وسلم (١) ويقول أبو سعيد كل باطن يخالف ظاهرا فهو باطل •

وقد تكررت أمثال هذه الكلمات من أكابرهم في هذا القرن الحاشد بهم - مما يدل على انهم شعروا ان شيئا بدأ يطرأ على نزعات بعضهم ، بفتح باب التقول عليهم بتخطي سياج الشريعة الى أمور لا تقرها نصوصها فأراد أئمتهم دفع قاله السوء عن طائفتهم ، وبيان أمرهم مشيد بالكتاب والسنة ، فكل ما يخالفهما فهو باطل ، لا اعتداد به عندهم ولو صدر ممن يطير في الهواء ويمشي على الماء ، ويطوى له المكان وينشر له الزمان ، بقول أبو يزيد البسطامي : لو نظرتم الى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقى في الهواء فلا تغتروا به تنظروا كيف تعبدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وآداب الشريعة وروى القشيري في الرسالة أن أبا يزيد قال لبعض أصحابه : قم بنا ننظر هذا الرجل الذي قد شهّر نفسه بالولاية ، وكان رجلا مقصودا مشهورا بالزهد ، فمضينا اليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه .

(١) مقدمة الرعاية للاستاذين : عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقي سرور •

وقال : هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه ؟

ويقول سري السقطي ، التصوف اسم لثلاث معان وهو الذي لا يطفى نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بباطن في علم ينقصه عليه ظاهراً الكتاب والسنة ولا تحمله الكرامات على هتك أسرار محارم الله .

ويقول أبو حمزة البغدادي : من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أحواله وأفعاله وأقواله .

ويقول أبو القاسم القشيري في الرسالة بعد أن ترجم لعبد من متقدميهم في علوم المعاملات والزهد والورع ، وأكثر من ذكرهم من رجال القرن الثالث : (هذا ذكر جماعة من شيوخ هذه الطائفة كان الغرض من ذكرهم في هذا الموضع التنبيه على أنهم كانوا مجمعين على تعظيم الشريعة متصفين بسلوك طرق الرياضة والديانة ، مقيمين على متابعة السنة ، غير مخلصين بشيء من آداب الديانة متفقيين على أن من خلا من المعاملات والمجاهدات ولم يبين أمره على أساس الورع والتقوى كان مفترياً على الله سبحانه وتعالى فيما يدعيه مفتونا ، هلك في نفسه وأهلك من ائتمر به ممن ركن إلى إباطيله .

ومن العجيب أن بعض هؤلاء الأكابر أصحاب هذه التحذيرات الشرعية هم من الذين نقلت عنهم كلمات يصعب فهمها على مقتضى قوانين الشريعة وأحكامها وإن أبا يزيد - وهو صاحب ذلك الكلام المشرق بأنوار الشريعة المطهرة كان في طليعة من نقل عنه بعض الكلمات الجامحة التي يعسر تأويلها بوجه صحيح ، كما نقل من غيره الفاظ خارجة عن نطاق الأصول الشرعية .

وهخرج ذلك عندنا أحد أمرين ، أولهما - أن ذلك مما حمله عليهم من لم يرج لله فيهم وقاراً ، تشويهاً لسلوكهم وتعويجاً لطريقهم حتى ينقطع عنها السالكون . وهذا يتأيد بما صح عنهم من القول الذي نقلنا طرفاً منه في تعظيم الشريعة والتزام حدودها ، والتصريح بأن كل من خرج في قوله أو فعله عن هذه الحدود هالك مفتون ، كما يتأيد أيضاً بأفعالهم التي جعلوا سياجها تقوى الله والزهد في مظاهر الدنيا والورع في الحلال فضلاً عن الحرام ، والتزام القرائض وكثرة نوافل الخير في آناء الليل وأطراف النهار ، وبعبء جداً أن يكون صاحب هذه السلوك متصنعاً للناس يظهر خلاف ما يبطن ، وهم من ذلك براء .

ثانيهما - أن القوم أهل رياضة ومجاهدة وتعبد ، ومناجاة في

خلواتهم مع الاخلاص الكامل وفناء النفس عن رؤية عمل من أعمالها ، وان
مرد الاعمال عندهم الى توفيق الله ، فهم متعرضون لنفحات الله فى سائر
أوقاتهم ، والله على عبادته المتعرضين لنفحاته فيوضات من الاشراق الروحي
تنزل على قلوب المخلصين ، فاذا فاجأتهم لمعات الاشراق بقوة فيضها ضعفت
تحت أشعتها المرسله من شمس التجليات الربانية ، قوة بشريتهم وأخذوا
عن حقيقتهم التكليفية واندفعت السيئنتهم تعبر عن مشاهد الاشراق
فعجزت العبارة عن الاداء فكانت منهم تلك الكلمات الجامحة فى مقياس
الشريعة والعقل القاصرة فى ميزان المشاهدة والمكاشفة .

فعجز بشريتهم عن تحمل مباغثات الاشراق هو الذى ادى الى قصور
العبارة عن آداء حقيقة المشاهدة وقصور العبارة عن ذلك الاداء هو الذى
السببها جناب الجموح عن جادة الاصول الشرعية .
ولعل هذا المعنى هو بيان ما يعتذر به عنهم المعتذرون عن ان ذلك صدر
عنهم فى حال سكرهم وغيبتهم عن شهود أنفسهم .

ولهذا الاتوجد امثال هذه الكلمات الجامحة عند أهل الصدر الاول
من الصحابة والتابعين تمكنهم من منازل الشهود وصحوهم دائما وقوة
أرواحهم وصفاء بشريتهم بما كسبوه بمشاهدة أنوار النبوة مباشرة
كالصحابة أو بالواسطة القريبة كحال التابعين ، كبار اتباعهم .

وهنا نلاحظ أن الذين صبت اليهم تلك الكلمات الجامحة اكثرهم
من سلالات كان لاصونها القريبة أو البعيدة نسب واسع فى العقائد
الوثنية المفاصلة ، كما نلاحظ ان العصر الذى عاشه من نسبت اليهم
تلك الكلمات الجامحة كان عصر تفلسف فى العقيدة الاسلامية من جانب
أنصارها دفاعا عنها ومن جانب خصومها افسادا لها ، فهل كان لذلك
التفلسف العقيدى فى العصر الذى عاشوه أو أصالة النسب فى السلالات
الوثنية المفلسفة أثر فى ذلك ؟ هذا شئ يحتاج الى بحث عميق واستقصاء

يعيد المدى ثم يسعفنا وقت هذا البحث بهما ونحن نميل الى تبرئة
الأكابر من أئمة الصوفية فى عصرها الاول الذى استقامت فيه معانيها ،
وتميزت فيه بخصائصها ، واحتفظت فيه بصفاتها التى صورها المحاسبى
والخراز فى كتابيهما ، ونرى ان كل قول يخالف نصا قطعيا فى
الشريعة نسب الى أحدهم هو من باب التقول ، والكذب عليهم .

هكذا مرت الصوفية والتصوف فى المرحلة الاولى من الحياة فى
تاريخ الاسلام ، وفى القرن الاول نبتت بذرتها على أيدي الزهاد والعباد
وأهل الورع والتقوى الذين أزمضت الفتن الداخلية فى الامة الاسلامية
قلوبهم ، فاعتزلوها منطوين على أنفسهم ، يعبدون الله قياما بفرائضه
مخاصين له الدين ، لا يريدون دنيا الناس ، ولا يزاحمونهم عليها .

ولما انفرط عقد القرن الاول ، ودخل القرن الثاني كانت الصوفية قد قامت على ساقها غضة الاهداب ، لم تستكمل كيانها ، وبدأ اهلها يتحدثون عن المراقبة والاحسان والاخلاص والتقوى ، ومحاسبة النفس ورعايه حقوق الله والصدق فى معاملته ، وبدأ الناس يرون فيهم لونا جديدا للعمل والجد فى العبادة والتجافى عن الدنيا وزخارفها ، حتى أصبح لهم فى حياة المسلمين حديث يتحدث به حين حين يشيرون اليهم . كما أصبح لهم فى حياة المسلمين حديث يتحدث اثناس به حين يشيرون اليهم كما أصبح لهم كلمات خاصة تتردد فى مجالات معارفهم وعلومهم ، عرفت بهم وعرفوا بها ، ونهض جماعة من اهل علومهم ومعارفهم يقيّدون أقوال أئمتهم ، ويرصدون كلماتهم الى جانب آى القرآن الكريم وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة رضى الله عنهم ويجعلونها كالتفسير للقرآن والسنة على أنها من وارداتهم المستنبطة من صفاء باطنهم وقيامهم على العمل بالشريعة المطهرة على قدم المراقبة والاخلاص .

ومن هنا نبع عندهم ما سموه يعلم الباطن ، وهو عند أكابرهم من السابقين ليس الا زبدة العمل بالشريعة ، وثمره المجاهدة فى القيام بأوامر الله ، وبه يفسرون قوله تعالى (واتقوا الله ويُعلمكم الله) والتقوى لا تتحقق الا بالعلم وهو علم الشريعة علمه الله علوما كثيرة أو أفاض عليه معارف لا نهاية لها .

ويعتبر هذا الدور دور حضانة للصوفية والتصوف ، فيه شبت على أقدام اتكوين الطائفى ، وفيه تجمعت لها خصائص هيئتها الى أن تبرز فى وجود الحياة الاسلامية طائفة ذات معارف وعلوم ، وذات منطق خاص له عندها أصوله وقواعده .

ولم يكن ينصرم القرن الثانى حتى كانت الصوفية والتصوف طائفة من خلاصة المسلمين قائمة بذاتها بين الطوائف الاسلامية ، لها خصائصها ومعالمها التى يستدل بها عليها وميزاتها التى تعرف بها ، ولها أئمتها ومعارفها ، ولها مصطلحاتها فى تلك العلوم والمعارف ، ولها أئمتها وروادها ، ولها حلقاتها الدراسية ، ولها كتبها ومؤلفاتها ولها حياتها الخاصة التى تقوم على رياضة النفس وتهذيبها وتخليصها من عبودية الغرائز ، وتصفيتهما من كدورات الاهواء والذائل ، ولها وراء ذلك مجاهداتها فى عبادة الله وذكره ، وتذكير عباده بالائه ونعمه ، ليجذبوهم الى حظائر قربه ومعرفته .

وفى هذه المرحلة كان أخص ما يتحدث فيه أئمتهم أسرار التوحيد ودلائل الربوبية ولم تخرج أحاديثهم قط عن السنن الاقوم المعتمد على الاصول الشرعية ، بيد انها كانت تخرج الى الناس بأسلوب على غير ما عهدته العلماء فى الجدل المنطقى الذى كان يسود الحياة العلمية

الاسلامية منذ انقرن الثاني، بل كان أسلوبهم أسلوبا منفردا بخصائصه خلع الله عليه جلابيب القبول ، والصولة على العقول ، يفهمه من أنس به ، وينتفع به من يسلم له ، روى ان الامام أبا العباس ابن سريج اجتاز الى حلقه الجنييد ، وكان يتكلم في التوحيد ، فسمع كلامه ، فسأله عنه ، فقال : لا أدري ما يقول ، ولكنني أجده لكلامه صولة ليست بصولة مبطل . وفى القرن الرابع كانت الصوفية حقيقة كبرى من الحقائق التاريخية الوجودية فى حياة المسلمين ، استكملت جميع مقوماتها ، وأصبحت لها مدارسها الخاصة ، ومحافلها الحاشدة ومصطلحاتها العلمية وطرائقها فى التفكير ، ومناهجها فى التربية والسلوك .

وفى هذه الفترة من عنفوان القرن الرابع عاش محمد بن أبى الحسن المعروف بأبى طالب المكي صاحب « قوت القلوب » وهو الكتاب العظيم الجامع لعلوم المتصوفة . وأحوالهم ومقاماتهم ، وهو دائرة معارف لهم ، ومصدر من أوسع مصادرهم ، عرض فيه أبو طالب منهج الصوفية العلمى وأبان عن سلوكهم ، ورسوخهم فى المعارف الربانية ، وطريقة فهمهم للنصوص الشرعية من الآيات القرآنية والإسنادات النبوية . حرىضا على أن يجعل من أقوال العلماء والأئمة فى فهم هذه النصوص وسيلة لتقريب فهم الصوفية الى الناس أو ليجعل فهم الصوفية فى النصوص متمشيا مع آراء علماء الشريعة الذين سماهم أبو طالب علماء الظاهر وجعل علمهم علم الظاهر ، وعلم الصوفية علم الباطن وربط بين العلمين ربطا جعل أحدهما لا يستغنى عن الآخر مع تفصيل علم الباطن ورفع درجته على علم الظاهر فيقول : ولعمري ان الظاهر والباطن علمان لا يستغنى أحدهما عن صاحبه بمنزلة الاسلام والايمان ، مرتبط كل واحد بالآخر كالجسم والقلب لا ينفك أحدهما على صاحبه .

وهذا هو الامتياز الذى اتخذه المتصوفة خصيصة لهم بين عامة الاسلام ، وهو الذى يدندنون حوله ، وهو الذى فتح لتأخيرهم ابواب التوسع فى معانى النصوص توسعا يخرجها عن حقائقها الشرعية ، فاذا عورضوا بمدلولات الالفاظ وأوضاعها اللغوية والشرعية كانوا : هيهات فهيهات هذه المدلولات والأوضاع اللغوية والشرعية هى من علم الظاهر الذى يكلف به العامة ، وهناك وراء هذه المدلولات والأوضاع علم الباطن الذى هو ثمرة الفتح الناشئ عن المعرفة وصدق المعاملة مع الله سبحانه ، ويستدلون بحديث (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) .

وأبو طالب المكي وإن كان مسبوقا بها الاتجاه الصوفى لكنه يعتبر أول من وضعه وضعا علميا يحتاج له بالنصوص وأقوال الأئمة من علماء الشريعة . ولهذا كان كتابه (القوت) من أهم مصادر الصوفية المحافظين

ونحن نسوق مثلاً من كتابه على اتجاذه هذا ليتبين حفظ هذا
الامام من تأسيس التصوف تأسيساً علمياً ، وهذا التأسييس العلمى
مرحلة ثانية من مراحل التصوف ، وهى أهم وأعظم مراحل ، وعليها يبنى
كل من جاء بعده ، وهى الطريقة التى تبطنها الامام الغزالي فى كتابه
«الاحياء» مقاربا محافظا على أصول الشريعة وفروعها .

قال أبو طائب فى شرح قوله صلى الله عليه وسلم . (طلب العسليم .
فريضة على كل مسلم) : (قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله : أراد
بذلك علم حال ، يعنى علم حال العبد من مقامه الذى أقيم فيه . بأن يعلم
أحكام حاله الذى بينه وبين الله عز وجل فى دنياه وآخرته خاصة ،
فيقوم بأحكام الله تعالى عليه فى ذلك .

وقال بعض العارفين : معناه طلب علم المعرفة ، وقيام العبد بحكم
ساعته وما يقتضى منه فى كل ساعة من نهاره .

وقال بعض علماء الشام : انما عنى به طلب علم الاخلاص ومعرفة
آفات النفس ووساوسها ، ومعرفة مكاييد العدو وتخدعه وغروره . وما
يصلح الاعمال ويفسدها ، فريضة كله من حيث كان الاخلاص فى الاعمال
فريضة ، ومن حيث أعلم بعبادة إبليس ، تم أمر بمعاداته ، وذهب
الى هذا القول عبد الرحيم بن يحيى الأرموى ومن تابعه .

وقال بعض البصريين فى معناه : طلب علم القلوب ومعرفة الخواطر
وتفصيلها فريضة . لانها رسل الله الى العبد ، ووسواس العنوب
والنفس ، فيستجيب لله تعالى بتنفيذ ما منه اليه . ومنها ابتلاء الله تعالى للعبد
واختبار تقضيه مجاهدة نفسه فى نفيها ، ولانها أول النية التى هى
أول كل عمل ، وعنهما تظهر الافعال ، وعلى قدرها تضاعف الاعمال
فيحتاج أن يفرق بين لمة الملك ولمة العدو ، وبين خاطر الروح ووسوسة
النفس وبين علم اليقين وقوادح العقل ليميز بذلك الاحكام وهذا عند
هؤلاء فريضة ، وهو مذهب مالك بن دينار ، وفرقد السنجى ،
وعبد الواحد بن زيد واتباعهم من النساك ، وقد كان استاذهم الحسن
البصرى يتكلم فى ذلك ، وعنده علم لقلوب .

وقال عباد أهل الشام : معناه طلب علم الحلال فريضة ، اذ قد أمر
الله تعالى به ، وأجمع المسلمون على تفسير آكل الحرام ، وقد جاء فى
حديث مفسر : « طاب الحلال فريضة بعد الفريضة » ومال الى هذا القول
ابراهيم بن أدهم ، ويوسف بن أسباط ووهيب بن الورد ، وحبيب بن
حرب .

وقال هذه الطائفة من أهل المعرفة : معناه لب علم البنان

فريضة على أهله ، قالوا : وهذا مخصوص لاهل القلوب ممن استعمل
مته ، واقتضى منه مدة دون غيره من عوام المسلمين ، والا انه جاء في لفظ
الحديث: (تعلموا اليقين) فمعناه علم اليقين ، وعلم اليقين لا يوجد الا عند
الموقنين ، وهو عن أعمال الموقنين المخصوص في قلوب العارفين ، وهو
العلم النافع الذي هو حال العبد عند الله تعالى ومقامه من الله تعالى كما
شهد له الخبر الآخر في قوله صلى الله عليه وسلم : « وعلم باطن في
القلب ، وهو العلم النافع » فهذا تفسير ما أجمل في غيره .

وقال جندب : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلمنا
الايمان ، ثم يعلمنا أنقرآن فازددنا ايماننا ، وسيأتي زمان قوم يتعلمون
القرآن قبل الايمان ، يعنى تعلمنا علم الايمان ، وهذا مذهب نساك
أهل البصرة .

وقال بعض السلف : انما معناه طلب علم ما لم يسع جهله من علم
التوحيد ، وأصول الامر والنهى والفرق بين الحلال والحرام اذ لا غاية
لسائر العلوم بعد ذلك .

وكلها يقع عليه اسم علم من حيث هي معلومات ، ثم قد اجمعوا
ان ليس تعليم ما زاد على ما ذكرناه فرضا ، وانما فيه فضل او ندب .
وقال بعض فقهاء الكوفة : معناه طلب البيع وانشاء ، والنكاح
والطلاق واذا اراد الدخول فيه افترض عليه من دخوله في ذلك صلب
علمه لقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا يتجر في سوقنا هذا الا من
تفقه ، والا أكل الربا . شاء أم أبى ، وكما قيل تفقه ثم اتجر ، وقال
هذا سفيان الثوري وأو حنيفة وأصحابهما .

وقال بعض المتقدمين من علماء خراسان : هو أن يكون ارجل في
منزله فيريد أن يعمل شيئا من أمر الدين ، أو يخطر على قلبه مسألة لله
سبحانه وتعالى فيها حكم وتعبد ، وعلى العبد في ذلك اعتقاد او عمل
فلا يسعه أن يسكت على ذلك ، ولا يجوز له أن يعمل فيه برأيه ولا يحكم
بهواه ، فعليه أن يلنس نعليه ويخرج فيسأل عن أعلم أهل بلده
فيسأله عن ذلك عند ائنازلة ، فهذا فريضة ، وحكى هذا القول عن ابن
المبارك وبعض أصحاب الحديث .

وقال آخرون : يعنى طلب علم التوحيد فرض ، وانما اختلفوا في
كيفية الطلب وماهية الاصابة ، فمنهم من قال : من طريق الاستدلال
والاعتبار ، ومنهم من قال : من طريق البحث والنظر ، ومنهم من قال :
من طريق التوفيق والاثار .

وقالت طائفة من هؤلاء : انما اراد طاب علم الشبهات والمشكلات

إذا سمعها العبد وإبتلى بها ، وقد كان يسعه ترك الطلب إذا كان غافلا عنها على أصل التسليم ومعتقد جملة المسلمين ، لا يقع في وهمه ولا يحيك في صدره شيء من الشبهات فيسعه ترك البحث ، فإذا وقع في سمعه شيء من ذلك ووقر في قلبه ولم يكن عنده تفصيل ذلك وقطعه ومعرفة تمييز حقه من باطله لم يحل له أن يسكت عليه لئلا يعتقد باطلا أو ينفي حقا فافترض عليه طلب ذلك من العلماء به فيستكشفه حتى يكون على اليقين من أمره ، فيعتقد من ذلك الحق وينفي الباطل ، ولا يقعد عن الطلب فيكون مقيما على شبهة ويتبع الهوى ، أو يكون شاكا في الدين فيعدل عن طريق المؤمنين ، أو يعتقد بدعة فيخرج بذلك عن السنة ومذهب الجماعة وهو لا يعلم ، ولهذا كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول في دعائه : اللهم أرنا الحق حقا فننتبعه وأرنا الباطل باطلا فنجتنبه ، ولا تجعل ذلك مشتتبا علينا فننتبع الهوى . وهذا مذهب أبى ثور إبراهيم بن خالد الكلبي ، وداد بن علي والحسين الكرابيسي ، والحارث بن أسد المحاسبي ، ومن تابعهم من المتكلمين .

قال أبو طالب رحمه الله بعد أن ساق ما تقدم : فهذه أقوال العلماء في معنى هذا الخبر ، حكينا ذلك عن علمنا بمذاهبهم على معنى مذهب كل طائفة ، واحتججنا لكل قول ، فالألفاظ لنا ، والمعنى لهم ، وهذا كله حسن ومحمّل ، وهؤلاء كلهم وإن اختلفوا في تفسير الحديث بالفاظ ، فإنهم متقاربون في المعنى إلا أهل الظاهر منهم ، فإنهم حملوه على ما يعلمونه ، وأهل الباطن تأولوه على علمهم ، ونعمرى أن الظاهر والباطن علما لا يستغنى أحدهما عن صاحبه بمنزلة الاسلام والايمان ، مرتبط كل واحد بالآخر كالجسم والقلب ، لا ينفك أحدهما عن صاحبه ثم قال أبو طالب : والذي عندنا في حقيقة معنى هذا الخبر - والله أعلم - أن قوله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة . يعنى علم هذه القرائن الخمس التى بنى عليها الاسلام من حيث لم يفترض على المسلمين غيرها ، ثم أن العمل لا يصح الا بعلمه ، فأول العمل العلم به ، فصار علم العمل فرضا من حيث افترض العمل .

ثم ذهب يفصل القول في ادخال جميع الاقوال المعتبرة عند علماء الشرع من الفقهاء والمحدثين ، وعند علماء علم القلوب والخواطر واليقين من المتصوفة في عموم القول الذى اختاره ، وهذا حسن بيد أنه اخراج الحديث عن عموم المقصود بدلالة ما أورده أبو طالب من النصوص الخاصة في بعض العلوم ، وادخال اصحابها لها تحت مفهوم العموم من الحديث .

ومن حق هذا البحث أن يفهم هذا الحديث الدائر على السنة

العلماء ، الذى يعتبرونه سنداً قوياً فى نصوص الاسلام على حبه للعلم والمعرفة ، وتقديرهما حق قدرهما وأعظامهما والحث عليهما ، أنه - كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم - على عمومه فى سائر أنواع العلم والمعرفة ، والمخاطب به الامة كلها ، فلا يخرج عنه علم من العلوم ، ولا باب من أبواب المعرفة ، ولا ينبغى قصره على شيء منها دون غيره وفرض الكفاية باق على فرضيته بالنسبة لعموم الامة ، وفرض الايمان متوجه على الافراد والذوات المكلفين فى ضمن عموم خطاب الامة .

وفى ايراد هذا الحديث بنصه الذى أورده به أبو طالب رحمه الله دقة حدِيثية تثنى للامام أبى طالب ، حيث رواه مقطوعاً عما زاده فيه بعض المتأخرين ممن لم يتمرس على النظر فى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من كلمة (ومسلمة) وهو بنصه الصحيح كما رواه الثقة ، وكما ذكره فى « القوت » لا حاجة به الى هذه الزيادة ، لانه جرى على سبيل النصوص العامة التى ترد بلفظ التذكير ، ويراد بها ما يعم الرجال والنساء فى التكليف باعتبار ان التكليف يسعوى بين الرجال والنساء ولا يفرق بينهم ، وانساء شقائق الرجال فى جميع الاحكام الا ما خصه الدليل بالنص ، أو بطبيعة الحلقة الانهية والتكوين الربانى .

فانظر الى هذا الامام العالم الصوفى « المتفقه الربانى كيف ادار الحديث فى بيان معنى الحديث المشهور المتعالم بين العلماء ، وكيف عرض فى تفسير معناه أقوال العلماء من الفقهاء والمتحدثين والمتكلمين والانسك المتعبدین أرباب علم القلوب ، بل كيف أدخل فى معناه خطرات بعض المتصوفة وسبحاتهم البعيدة الاحتمال عن معنى الحديث ، وجعل تلك الخطرات معنى محتملاً فى جملة ما يحتمله الحديث من التفسير والمعنى ، وانظر اليه كيف استدل لكل قول بنصوص من الأحاديث وأقوال اكابر الصحابة رضوان الله عليهم التى وردت فى تلك المعانى الخاصة بمحل ورودها ، حتى المعانى التى نحانحوها المتصوفة استدل لها بنصوص خاصة فى معانيها ، وهذه النصوص الخاصة مشهورة عندهم مداوله بينهم ، ولكنها لا ترتفع الى درجة حديث (طلب العلم فريضة على كل مسلم)

فأبو طالب المكى رحمه الله تعالى يريد من هذا الاتجاه العلمى فى كتابه أن يفهم فارثوه من سائر الطوائف والمذاهب أن (المتصوفة) لا يذهبون فى فهم النصوص فهماً لا تحتمله معانيها ، فهم وان قسأوا يعلم الباطن فى تفسير النصوص فانهم لا يخرجون بباطنهم عن مؤاحاه علم الظاهر .

وذلك هو ما قصدناه بقولنا : ان أبا طالب المكى أسس بكتابيه

« الفوت » التصوف تاسيسا علميا ابتدأت به المرحلة النائية من مراحل
« التصوف » .

جاء بعد أبى طالب المكي فى النصف الثانى من القرن الرابع
الهجرى الامام زين الاسلام أبو القاسم القشيري وكان من أئمة المسلمين
فى الفقه وأصوله ، وأصول الدين وطرائق المتكلمين ، وله فى الحديث
وروايته مكان لا يقتصر ، وفى التفسير مقام لا يهدم وفى الادب وبراعة
إبيان كان آية من آيات الفصحى ، وكان فى حدة الذكاء وقوة الحافظة
مثلا مضروبا ، روى أنه اختلف الى درس الاستاذ الامام أبى إسحاق
الاسفرايينى ، وسمع دروسه فى جملة أيام ، فقال له الاستاذ : هذا
العلم لا يحصل بالسمع ، فأعاد على الامام جميع ما سمعه منه فى سائر
الأيام التى حضرها مع الضبط وحسن التقرير ، فتعجب منه أبو إسحاق
وقال له : ما كنت أدري أنك بلغت هذا المحل ، فليست تحتاج الى دروسى ،
يكفيك أن تطالع مصنفاتى ، وتنظر فى طريقى ، فإن اشكل عليك شئ
طالعتنى به .

وكان من حسن موافقت الاقدار الالهية لأبى القاسم القشيري أن
جميعه الله على الشيخ أبى على الدقاق ، وهو امام وقته فى علم المعاملات
والخواطر وكان لسنن الصوفية الناطق بعلومها فى عصره ، حضر القشيري
مجالسه وسمع منه ، فأعجبه ولازمه ورأى الدقاق نجابته فأرشده الى
اشتغال بالعلم ، فاشتغل به وحضر دروس الائمة من أضراب أبى بكر
الطوسي ، وابن فورك والاسفرايينى وقرأ كتاب الباقلانى حتى برع فى
الفنون الشرعية والعقيدية والعربية ، ولم ينقطع عن مجالس الدقاق
الذى حنق عليه علم القلوب ، وتمرس على اشارات الصوفية ولوامع
خواطرهم بعد طول الرياضة والمجاهدة حتى أصبحت احوال الصوفية
خلقا له وفطرة مع تضلعه فى سائر العلوم ، وقد ألف فى كل فن كان
فى عصره معروفا فى العلوم الشرعية والأدبية مؤلفات اشتهرت بين
العلماء فى الشرق والغرب - ومن أشهرها تفسيره للقرآن الحكيم ، الذى
يعد مرجعا من المراجع الاصلية لكافة المفسرين الذين جاءوا بعده .

ولما أحكم أبو القاسم القشيري طريق القوم على يد استاذه الدقاق
سلك بعد وفاته مسلك الرياضة والمجاهدة والتجريد ، ووضع فى
« التصوف » رسالته التى اشتهرت فى مشارق الارض ومغاربها حتى
جاوزت شهرتها بلاد الاسلام ، وقد سلك فيها أبو القاسم مسلكا صوفيا
بحسب ، وهو يقول فى مقدمتها : أنه كتبها الى جماعة الصوفية ببلدان
الاسلام ، ثم أخذ يذكر نعوت طائفة الصوفية الذين مضوا قبل عصره
ذلك الذى امتحن فيه اكابر العلماء من أهل السنة ، وفى مقدمتهم صاحب

الرسالة فقال : (جعل الله هذه الطائفة صفوة اوليائه ، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم ، وجعل قلوبهم معادن أسرارهم ، واختصهم من بين الامة بطوالع أنواره ، فهم الغياث المخلق ، والدائرون في عموم احوالهم مع الحق بالحق ، صفاهم من كدورات البشرية ورقاهم الى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الاحدية ، ووفقهم للقيام بأداب العبودية ، واشهدهم مجارى أحكام الربوبية ، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليل والتصريف ، ثم رجعوا الى الله تعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار ، ولم يتكلموا على ما حصل منهم من الاعمال ، أو صفا لهم من الاحوال ، علموا منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد ، ويختار ما يشاء من العبيد ، لا يحكم عليه خلق ولا يتوجه عليه لمخلوق حق ، ثوابه ابتداء فضل ، وعذابه حكم عدل ، وأمره قضاء فصل) .

ثم أخذ أبو القاسم يذكر ما أصاب هذه الطائفة في عصره من انقراض محققهم وخلق البلاد منهم ، وسوء حال المدعين لطريقتهم ، واستفحال فسادهم حتى ادعى من ادعى منهم أنهم (تحرروا عن رق الاغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامهم ، وهم محو ؛ وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ، وأنهم كشفوا بأسرار الاحدية واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت احكام البشرية، ويقوا بعد فنائهم بأنوار الصمدية ، والقائل عنهم غيرهم اذا انطقوا ، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا ، بل صرفوا)

وهذا اشارة الى مذهب نحلة ضالة ادعت التصوف لتتستر به ، وهم اباحيون ، يسقطون التكاليف ، وهم الذين قال فيهم الجنيد رضى الله عنه : ان من يسرق ويزنى خير من هؤلاء وهذه الاشارة من أبى القاسم النقشيري تدل على ما دخل على الصوفية من تلاعب وفساد على يد بعض الطوائف الضالة من الباطنية .

ثم ذكر أبو القاسم انه أشفق على القلوب ان تضل القصد في حق التصوف والمتصوفين فتحسب ان امر هذه الطائفة بنى قواعده على هذه الجملة التي حكاهما عن أهل الضلالة ، فعلق (هذه الرسالة ، وذكر فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة في آدابهم واخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم ، وما أشاروا اليه من مواجيدهم ، وكيفية ترقيتهم من بدايتهم الى نهايتهم لتكون لمريدى هذه الطريقة قوة) .

والنقشيري رحمه الله تعالى قد نقل « التصوف » برسالته نقلة كبرى لانه أجرى الحديث في فصولها وموضوعاتها بطريقة صوفية بحثة ، لم يسلك فيها مسلك المحاسبى في (الرعاية) بل ولا مسلك أبى طالب المكي في (القوت) من حيث مزج النصوص الشرعية بأقوال الصوفية وآدابهم في

ثغايا الابواب والفصول ، بل يكتفى فى الاعم الاغلب بايراد بعض النصوص من الآى أو الاحاديث النبوية فى أوائل الابواب ثم ينتقلت مسرعا الى أقوال اصفوية يشرح بها مايريد من الفاظهم .

وخصص أبو القاسم رحمه الله تعالى بابا من رسالته لذكر مصطلحات القوم فى أحوالهم ومقاماتهم بالفاظهم التى تدور على ألسنتهم ، وخصص كل لفظ بفصل مستقل ، لتفسيره وبيان معناه بأقوال أكابرهم .

وقد ترجم فى باب من ابواب الرسالة لبعض شيوخهم ، ثم أخذ فى شرح تلك الالفاظ التى يعبرون بها عن معان يحسونها بقلوبهم وعقولهم ووجدانهم فيذكر أبو القاسم : الوقت ، والمقام ، والحال ، والقبض والبسط ، والهيبة والانس ، والتواجد ، والوجد والوجود والجمع والفرق وجمع الجمع والفناء ، والبقاء ، والشريعة والحقيقة وغير ذلك من ألفاظهم التى يقصدون بها الى معان لا يعرفها غيرهم ولا يقول بها سواهم .

وذكر أبو القاسم رحمه الله فى باب (حفظ قلوب الشيوخ وترك الخلاف عليهم) أمورا يتوقف فى قبولها أهل الشرع ، ولا يرضوا بها العقليون ، وساق فى مطلع هذا الباب قصة موسى والخضر عليهما السلام لبيان مايلزم من أدب الصحبة بين العلماء بالله ، وليس هذا من قبيل اعتماد كفة متأخرى المتصوفة على هذه القصة فى مسألة علم الظاهر والباطن ، ومسألة الحقيقة والشريعة عندهم .

والقصة - كما جاءت فى القرآن الكريم وصحیح الحديث - لاستند فيها لشيء من ذلك ، لأنها وردت على سبب معين ، كما فى حديث البخارى ومسلم (ان موسى عليه السلام قام خطيبا فى بنى اسرائيل فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أن : فعتب الله عليه اذ لم يرد العلم اليه ، فأوحى الله اليه ، ان لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك) واستدل موسى عليه السلام ربه على مكان هذا العبد الاعلم منه ، ليتعلم منه مما علمه الله ، فدلله الله عليه ، وذهب اليه موسى عليه السلام ، وجرت الحوادث الخاصة التى كان العبد العليم يعلم حكمها بتعليم الله ووحيه ، ولم يكن موسى عليه السلام على علم بأحكامها ، لأن الله لم يعلمه بها بوحيه ، اذ لم تكن توارلها واحداها مما يحتاج الى علم الحكم فيها ، لأنها لم تقع فى قومه ولو احتاج اليه لوقعها لوجب أن يكون على علم بها أداء لحق الرسالة والنبوة .

ولذلك قال العلماء بالقرآن والسنة : ان معنى قوله : هو أعلم منك ، أى - بأحكام وقائع مفصلة وحكم نوازل معينة ، لامطلقا فى جميع العلم والمسائل ، بدليل قول العبد العليم لموسى : (انك على علم علمك الله لا

أعلمه أنا ، وأنا على علم علمنيه الله لا تعلمه انت) وهذا صريح فى ان كل واحد منهما كان اعلم من صاحبه بالنسبة الى ما يعلمه بوحى الله اليه ولا يعلمه الاخر ، لان الله تعالى لم يأمره به ؛ كما يشير الى ذلك قوله (وما فعلته عن أمرى) .

وهذا شبيه بما ورد فى قصة داود وسليمان عليهما السلام فى قوله تعالى (وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفثت فيه غم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما) قال العلماء بالقرآن والسنة : كان داود وسليمان عليهما السلام نبيين يقضيان بما يوحى اليهما ، فحكم داود بوحى ، وحكم سليمان بوحى : وكلا حكميهما صحيح ، لكن حكم سليمان كان أرفق بالقوم ، ولذلك أثنى الله عليهما فى نسق واحد فقال : (وكلا آتينا حكما وعلما) ولو كان حكم داود خطأ لما أثنى الله عليه مع سليمان بأعطائه الحكم والعلم معا كما أعطاهما لسليمان . ومن هذا الباب حديث أبى هريره عند مسلم ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : (بينا امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بأبنا احدهما ، فقالت هذه لصاحبتها : انما ذهب بابنك انت ، وقالت الاخرى : انما ذهب بابنك ، فتحاكما الى داود ، ففضى به للكبرى : فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام ، فأخبرناه ، فقال : ائتوني بالسكين أسقه بينكما : فقالت الصغرى ، لا ، يرحمك الله ، هو ابنها : ففضى به للصغرى) فحكم داود عليه صحيح باعتبار التشريع العام والاخذ بالقرائن والامارات الظاهرة : وحكم سليمان صحيح باعتبار هذه النازلة التى ظهر له فيها صدق الصغرى فحكم لها به تغليباً لقرائنها واماراتها على قرائن وامارات الكبرى .

وفى قضية موسى عليه السلام كان العبد العليم بحكم نوازله الخاصة نبيا يوحى اليه بدليل قوله فى آخر القصة (وما فعلته عن أمرى) ولا مانع أن يكون عند أحد الانبياء - الموجودين فى زمان واحد علم بأحكام حوادث تقع فى قومه ليس هذا العلم عند غيره من الانبياء الذين لا يحتاجون فى قومهم الى حكم هذه النوازل بعينها .

ويستحيل ان يكون غير النبى أعلم من النبى لما يؤديه ذلك الى العلم فى مقام النبوة ، وهو أعلى مقامات البشر عند الله تعالى ، فلا تعلق لغير الراسخين من القوم ولا سند لهم فى هذه القصة التى يتشبهون بها فى حكاية الظاهر والباطن ، والحقيقة والشريعة ، وكل ماجرى فى القصة هو من العلم الشرعى الذى علمه الله لعبده العليم بوحى منه تعالى ، ولم يعلمه موسى عليه السلام ، لانه لم يحتج اليه فى قومه ، ولو احتاج اليه موسى فى قومه لوجب ان يكون على علم به من الله تعالى .

ولم يؤثر عن أحد من الصحابة والتابعين وأكابر الأئمة والراسخين من أهل العلم بالله قول بخلاف ذلك ، وإنما كانت هذه الظاهرة عند المتشبهين بالمتصوفة من العاطلين عن حلى الاخلاص والمراقبة .

وأبو القاسم رحمه الله يروى فى هذا الباب عن أبى عبد الرحمن السامى انه قال : خرجت الى مرو فى حياة شيخى الاستاذ أبى سهل الصعلوكى ، وكان له قبل خروجى أيام الجمعة بالغدوات مجلس دور القرآن والختم فوجدته عند رجوعى قد رفع ذلك المجلس ، وعقد لآبى الغفانى فى ذلك الوقت مجلس لقول - أى السماع - فدخلنى من ذلك شىء ، فكنت أقول فى نفسى : قد استبدل مجلس الختم بمجلس القول ، فقال لى يوما : يا أبا عبد الرحمن ايش يقول الناس فى ؟ فقلت : يقولون : رفع مجلس القرآن ووضع مجلس القول ، فقال : من قال لاستاذه : لم لا يلفح أبدا .

هذه الحكاية وأمثالها يجرى ما فيها عند متأخرى المتصوفة منجى القانون الحتمى الذى لا تصح مخالفته فيما بين الاستاذ ومريديه ، وليس من حق التلميذ والمريد عندهم أن يقول لاستاذه : لم فعلت ؟ ولا لم تركت ؟ ولو رأى منه المخالفة الظاهرة لأوامر الشرع ونواهييه ، وبعض مؤنفيهم يبرزه فى صياغة يجعلها من أدب المريد والتلميذ مع استاذة فيقولون فى أدب انطريق : يجب على المريد ان يكون مع شيخه كالميت بين يدى الغاسل لا ارادة له معه .

وهذا أمر خطير فى دين الاسلام ، يفتح أبواب تعطيل الشريعة أمام من لم ترسخ قدمه فى معرفة الله تعالى ، ويؤدى الى عدم احتشام الاحكام واحترامها ، والى الاستهتار بها تحت ستار الاستاذية والمريديية ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، والخلفاء الراشدون يقول كل واحد منهم لرعيته : أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة لى عليكم وعمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه ، فيقوم اليه رجل من عرض الصفوف ، ويقول له : والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ، فيحمد الله تعالى عمر على أن جعل فى رعيته من رزق من شجاعة النفس وقوة الدين ، فبقوم اعوجاج خليفته بسيفه .

والامة مجمعة على أن شرعة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تبطل بالاستاذية والتلمذة ، فالحكم على المريد الذى يقول لشيخه : لم ؟ استطلاعا لوجه الامر فعل لم يفهم وجهه ، أو انكارا لعمل من الاعمال رآه التلميذ مخلفا لقواعد الشرع وأحكامه ، بأنه لا يلفح حكم لا يقره الشرع ولا

يرقباه العقل ، ويتنافى مع التربية الإسلامية التي توجب شجاعة النفس
وجرأة القلب فى الحق .

والمعروف فى أدب الارشاد الشرعى أنه يترك للتلميذ فرصة الفهم
لما يرى ويسمع ، ثم يسمع منه بصدر رحب ما يعتلج فى نفسه ليرشد
الى الصواب ان أخطأ ، ويقوم اذا اعوج .

ويجب فى هذا المقام أن يفرق بين السائل ليفهم ، ويذهب وعر
صدره ، وبين السائل تعنتا أو تنقضا ، فحق الاول رحابة الصدر والارشاد
والتهذيب والصبر على معالجته ، وحق الثانى الادب ، كما يجب الفرق بين
انكار الامور التى لها مخرج من الشريعة ، والامور التى لا مخرج لها
فى مذاهب العلماء ، فحق الاول بيان مخرجها وحق الثانية التسليم
لأن أنكر عليها .

ويحكى القشيري فى هذا الباب . ان شقيق البلخي وابا تراب
الغشسبي قدما على أبى يزيد البسطامي رضى الله عنهم ، فقدمت السفارة
وشدب يخدم أبى يزيد ، فقال له : كل معنا يا فتى ، فقال : أنا صائم :
فقال أبو تراب : كل ولك أجر صوم شهر ، فأبى ؛ فقال شقيق : كل
ونك أجر صوم سنة ، فأبى ، فقال أبو يزيد : دعوا من سقط من عين الله
تعالى ، فأخذ ذلك الشاب فى السرقة بعد سنة فقطعت يده .

وهذه الحكاية من جنس ما تقدم ، بل أشد ، لأن أهل الله قلوبهم
مشغولة بالله تعالى ، مليئة برحمته ولطفه بخلقه ، فهذا الشاب صائم
متلبس بعبادة الله تعالى ، دعى الى ابطالها ومشاركة الاشياخ طعاهم
وهو شرف لهذا المريد ، ولكنه رأى أن يختار رضا الله تعالى بالاستمرار فى
عبادته على هذا الشرف ، فما كان يضر هذه الحكاية لو جعلت هذا الشاب
من أبطال أهل الله الذين يؤثرون الله على خلقه ويؤثرونه على شهواتهم ؛
وما كان يضر هذه الحكاية لو أنها جعلت مكان سخط الاشياخ على شاب
يخدم أحدهم دعوات له بالتوفيق يجذبه الى الاخذ فى رفيع الطاعة بديلا
عن الاخذ فى السرقة التى قطعت يده فيها ؛ وأصبح مقصيا من حظيرة
أصحاب القلوب الرحيمة ؟

وأبو القاسم رحمه الله تعالى يجعل من الصوفية مذهباً يجب على
المريدين أتباعه وعدم الالتفات الى غيره من المذاهب الشرعية فيقول :
(ويقبح بالمريد أن ينتسب الى مذهب من مذاهب من ليس من هذه
الطريقة ، وليس انتساب الصوفى الى مذهب من مذاهب المختلفين سوى
طريقة الصوفية الا نتيجة جهلهم بمذاهب أهل هذه الطريقة ، فان هؤلاء
حججهم فى مسائلهم أظهر من حجج كل أحد ، وقواعد مذهبهم أقوى من

قواعد كل مذهب ، والناس اما اصحاب العقل والانزاه ، أرباب العقل والفكر وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة ، فالذى للناس غيب فهو نهم ظهور ، والذى للمخلق من المعارف مقصود فلهم من الله سبحانه موجود ، فانهم أهل الوصال والناس أهل الاستدلال) .

وهذا عجيب جدا ، فأين عمل العقل فى تأسيس العقيدة وتصحيحها وتنقيتها من غلس الاباطيل ، وحمايتها من الشبه والاضاليل ؟

وهل يمكن لكل مريد أن يصل باقتصاره على مذهب المتصوفة وعدم نظره فى مذاهب الفقه والكلام ان يعرف أحكام النوازل فى العبادات والمعاملات ، وأن يحمى عقيدته من تشويش أهل البدع والاضلال ؟

وأين عمل الاجتهاد والاستنباط من القرآن والسنة الذى كان طريق الصحابة وطريق التابعين من الفقهاء والمحدثين والمفسرين من ائمة الهدى والدين قبل ظهور المتصوفة والتصوف ؟

وهل كان أبو على الدقاق ، وهو الامام الصوفى الراسخ فى العلم والعمل ، شيخ أبى القاسم ومربيه على طريقة القوم حينما أرشده الى الاشتغال بالعلم فى مطلع حياته يقصد بالعلم غير دراسة مذاهب العلماء فى علوم الشريعة النقلية والعقلية من الفقه والحديث والتفسير والكلام ، وهى العلوم التى نبغ فيها أبو القاسم القشيري ، وخلفه فى موضوعاتها للعالم الاسلامي مصنفات تعد بين العلماء مراجع لها المكان المرموق من الاعتبار والتقدير ؟

وهل كان هذا الامام المتصوف الضليع فى طريق القلوب - وهو يشهد تلميذه أبو القاسم يتردد بين مجلسه ومجالس أئمة وقته فى علوم الشريعة من اضراب الاسفرايينى والطوسى ، وابن فورك غير ناصح لمريده وتلميذه ؟

كلا ، لا هذا ، ولا ذاك ؛ وانما هو حكم العصر والبيئة والمجتمع ؛ عصر أبى القاسم القشيري ، ومجتمع الاسلام فى ذلك العصر ، هو الذى دفع أبا القاسم الى أن يكتب هذا فى رسالته نصيحة لمريدى المتصوفة ، وخشية عليهم أن تتخطفهم ذئاب الجسد والمارء من طوائف الابتداع والتفلسف ، وخشية أن يقضى عليهم فراغ القلوب من تقوى الله وخشيته بالاستغفال بتفريغ مسائل الفقه التى لم تقع نوازلها فى الحياة ؛ وهو عصر شهد فيه أبو القاسم شدائد المحن والويلات التى حملته وحملت كثيرا من أئمة وقته على الهجرة الى المجاورة بمكة المكرمة حتى كشف الله عن المسلمين تلك الغمة وعاد الائمة الى ديارهم مدارسهم .
هولاء الائمة الاربعة الذين تحدثنا عنهم وعن كتبهم فى هذا الفصل ،

وجعلناهم مرآة لانعكس أطوار « التصوف » التاريخية فى الاسلام هم الذين وضعوا « التصوف » موضعه من التاريخ فى الاسلام ، وهم الذين تدرجوا به الى أطواره من مهده الى أن شب واستوى مذهبا من مذاهب التفكير فى الاسلام .

فالمحاسبى رحمه الله تعالى امام من أئمة الاسلام ومتكلم من متكلمي الذين نهضوا للرد على أهل الابتداع ، كتب لامة آداب الزهاد وانسالك ، وما يجب أن يكون عليه العبد فى رعاية حقوق الله ، مستمدا ذلك من الكتاب والسنة وفهم الأئمة من الصحابة والتابعين وسلوكهم فى الاخلاص والعمل ليجعل مما كتب نواة لجذب الناس الى منازل الاخلاص وتصفية القلوب ، معتمدا على علمه بالشريعة أصولها وفروعها وتطبيقاتها ، ولم يكن للتصوف ولا للمتصوفة فى عصره وجود مذهبى خالص يقصد الى تصويره والتحدث عنه ، ومن هنا ولشهرته فى الرد على المبتدعة ذكره أبو طالب المكي من بين المتكلمين ؛ ولم يره من علمائهم علماء الباطن .

وأبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى امام من أئمة المتصوفة ، عليم بالشرعية وآدابها ، كتب للناس آداب المتصوفة وهى فى مذهبها لم تستكمل شخصيتها الاستقلالية فهى تعيش مع الفقهاء فى مذاهبهم ومع المتكلمين فى طرائقهم الاولى قبل منطق الفلسفة ومع المحدثين فى سلوكهم ، ومع المفسرين فى اتجاهاتهم ، ولكنها مع ذلك ليست مغمورة المعالم بينهم ، بل كان لها سماتها فى التطبيق والعمل ، والتنسك والتعبد .

ولذلك كانت كتابة أبى سعيد رضى الله عنه مزيجا من مصادر الشريعة انصافية ، مجملة بشواهد التطبيق العملى فى دائرة صدق المراقبة والاخلاص .

وأبو طالب المكي رحمه الله تعالى كان عليما بالتصوف كمذهب يستمد خصائصه الاولى من الشريعة المطهرة أصولها وفروعها ، كتب ليبين للناس أن علم التصوف هو خلاصة علم الشريعة ، وأن عمل المتصوفة هو ثمرة العمل بالشريعة ، وأن هذا العمل اذا قام على الاخلاص والمراقبة فتح أبوابا من المعرفة والعلم ، لا تفتح بغير المجاهدة والصبر على مشقة التعبد ومحاسبة النفس على خطراتها ، وأن هذه الابواب من العلم والمعرفة لا يقوم عليها الا من نور الله قلبه ، وأراه بعين بصيرته من المعارف والعلوم ما لا يراه الواقفون مع عقولهم عند ظواهر النصوص ، وهذا ما يسميه علم الباطن ، ولكنه يربطه بعلم الشريعة برباط لا ينفصم .

أما الامام أبو القاسم القشيري فقد كان رحمه الله تعالى فى رسالته صورة صادقة للتصوف فى ذروة مراحلها ، ونهاية أطواره ، كمذهب مستقل

بين مذاهب الاسلام فى طريقة تفكيره فى الاعتقاد والتعبئة ، وصورة صادقة للمتصوفة كفرقة من فرق المسلمين ، لها طريقها الخاصة فى فهم النصوص وتأسيس العقيدة وتطبيق أصولها وفروعها فى الاعمال والمجاهدات .

وكل من جاء بعد القشيري اما آخذ منه ما تحب بدله ، نازع من منبعه ؛ وأما مفلس لما آخذ منه ؛ مستمطر غيظه ؛ مستظل بظله ؛ وأما هارب من طريقه متستر تحت بعض أفكاره ومبادئه .

وهؤلاء الهاربون هم الذين فلسفوا التصوف وعقدوا طرائقه ، وأدخلوا عليه غرائب العقائد الوثنية ، وشذرات النحل والمذاهب اللاحادية ، كالذين همهموا بوحدة الوجود ، أو الذين قابوا بأسسقاط التكاليف عن عرفيهم الواصلين الى الاتحاد والاباحية من كل ما يخالف أصول الاسلام وعقائده .

تصوف الغزالي

جاء الغزالي فوجد التصوف مذهباً قائم الدعائم ، واضح المعالم بأصوله وقواعده العلمية ومؤلفاته الإضافية ، ووجد المتصوفة فرقة من المسلمين لها خصائصها المميزة ، ولها كياناتها المستقلة فى طريقة تأسيس عقائدها ، وفى طريقة تعبدتها ، بل وجدها فى بلده ، وفى بيته ، حضنته بأدابها وسلوكها طفلاً ، ووجهته بصدقها فى المعاملة مع الخلق الى الاشتغال بالعلم ، فعن طريقها على يد شيخه وصى أبيه عليه وعلى أخيه عرف طريقه الى المدارس العلمية ، وجلس فى حلقاتها يسمع من أئمتها الفقه فى بلده طوس ، وفى جرجان ثم يرحل الى أستاذ عصره امام الحرمين فيلقاه فى نظامية نيسابور ، يحف حوله طائفة من أذكىاء الشباب ، يأخذون عنه أصول الفقه وأصول الدين ، والمنطق ، والحكمة ويتعلمون منه طرائق الجدل والمناظرة فيزاحمهم الغزالي وهو غض الشباب حتى زحهم ، ونافسهم على علوم الامام حتى غلبهم ، وتشبع حتى تضلع ، ولما وفى أستاذه رحل الى نظام الملك الوزير العالم الصوفى ، فوجد للصوفية عنده مقامهم الذى لا يسامى فخالطهم وعاشهم ، وجلس الى حلقاتهم ونظر الى سهرهم الليل وطمأهم بالنهار قياماً لله بحق العبودية ، وسمع كلامهم ، واستطلع بواطنهم واستجلى أنوارهم ، ثم رحل الى بغداد وعاد الى نيسابور فوجدهم قياماً فى خلواتهم على قدم الاخلاص ، طرخوا الدنيا بما فيها من أهواء وشبهوات وسمعة وجاه ، وسلطان ، وتعزز بالعلم ، وكان الغزالي قد بلغ من ذلك كله المبلغ الذى ليس فوقه درجة مستزيد وليس

وراءه غاية لمريد ، ذكاء خارق وعلم غزير ، جمع كافة معارف عصره ، وهو عصر كان أجمع العصور للعلم بأنواعه والمعرفة على سائر ضروبها ، الى جاء عريض وسلطان ينافس سلطان الخلفاء والامراء فى الدولة ، وغلبة فى الجدل والمناظرة ورياسة فى التدريس ، وشهرة طبقت الشرق والغرب ، وسمعة ملأت آفاق ارض .

ثم ماذا ؟ انها عناية الله تعالى هبى التى وجهت الغزالى الى الانضمام الى تحت لواء طائفة الصوفية بعد هذا الاستعداد العلمى العظيم الذى انفرذ به الغزالى فى عصره حتى لقب بحجة الاسلام .

وخصيصة الغزالى انه مفكر ثائر ، لا يؤمن حتى يفهم ولا يفهم حتى يدرس ويبحث وقد درس وعلم وفهم وحصل ، كل ما وعته العقول والافكار ، ونظر الى نفسه بعد كل ذلك فظهر له كما يقول (انه لا مطمع له فى سعادة الآخرة الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وان رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال والهرب عن الشواغل والعلايق ، ثم انى لا حظت أحوالى فاذا انا منغمس فى العلايق ، وقد احدثت بى من الجوانب، ولا حظت أعمالى واحسنها التدريس والتعليم فاذا انا فيها مقبل على علوم غير مهممة ولا نافعة فى طريق الآخرة ، ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس فاذا هبى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعشها ومحركها طاب الجاه وانشار الصيت فتيقنت انى على شفا جرف هار ، وانى قد اشفيت على النار ان لم اشتغل بتلافى الاحوال) . (١)

وصمم العزم واقبل بهمته على طريق الصوفية ، وعلم ان طريقهم انما تتم بعلم وعمل وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الحبيثة حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله وكان العلم أيسر عليه من العمل .

وهكذا آمن الغزالى بالصوفية والتصوف ، وآمن ان فيها دواء من أمراض الدنيا وشهواتها وانهما الطريق الموصل الى الله ، والسبيل المؤدى الى الفوز فى الآخرة برضوانه .

ولكن الغزالى ربيب العلم والمعرفة ، صاحب العقل العبقري ، لا يمكن ان يسلك طريقا الا بعد ان يجوسه بعلمه ، ويختبره بعقله ، فأتجه الى علوم الصوفية فوجدتها ممهدة فى كتب المحاسبى ، وأبى طالب المكي ، وأبى القاسم القشيري، وفى المتفرقات الماثورة عن أكابرهم يتلقاها بالسمع

(١) المنقذ من الضلال ،

من ثقافتهم ، فعكف على هذا المحصول العلمى يدرسه ويبحثه حتى أطلع على كنهه مقاصد أصحابه ، وظهر أنه انهم خصوا بما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات ، وعلم الغزالي يقينا ان الصوفية أرباب احوال لا اصحاب اقوال ، وان مايمكن تحصيله من علومهم بطريق العلم فقد حصلته ولم يبق الا ما لا سبيل اليه باسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك .

يقول الغزالي : وكان قد حصل معى من العلوم التى مارسها والمسالك التى سلكتها فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية والعقلية ايمان يقينى بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر ، فهذه الاصول الثلاثة من الايمان كانت قد رسخت فى نفسى لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها .

لم يتعب الغزالي رحمه الله تعالى فى تحصيل علوم الصوفية لان علومه انتمى كانت معه وايمانه بعلوم الصوفية وأحوالهم يسر عليه انتحصيل من اقرب طريق .

بيد أنه تعب فى مجاهدة النفس وصرفها من ما نوسها مما كان منغمسا فيه من أمور الدنيا التى وصفها ، فاجتمع بأشياخ الصوفية وسلم اليهم قياده يرشدونه ويربونه ويلاحظونه فى ترقياته وأحواله ، فيمثل أمرهم ويسمع قوتهم ، ويلبى امتاراتهم . يقول الزبيدى فى شرح الاحياء وهو مأخوذ من كلام عبد الغافر الفارسي كما تقدم (فاقتنى بصحبة الفارمدى واستفتح منه الطريقة ، وامثل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات والامعان فى النوافل ، واستدامة الاذكار ، والجهد والاجتهاد الى ان جاز تلك العقبات وتكلف تلك المشاق وما تحصل على ما كان يطلبه) .

وقد سبق ان أئبرنا الى أخذه عن شيخه يوسف النساچ ، وانتبى الى أنه فتح عليه فتحا علميا لا فتحا لدنيا ، وأنه ادرك ان الكتابة على الصفاء الاول أثبت من الكتابة على المحو بعد الاثبات .

لكن الغزالي يقول فى (المنقذ من الضلال) : وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات امور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذى اذكره لينتفع به انى علمت يقينا ان الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى حاسة وان سيرتهم احسن السير ، وأن طريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم اذكى ادخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكم الحكماء ، وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء لغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا الى ذلك سبيلا ، وان جميع حركاتهم وسكناتهم فى

ظاهريهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به .

ثم يقول الغزالي ، وبالجملية فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجازي منها مجرى التحريم من الصاوات استغراق القلب بالكلية يذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله ، وهذا آخرها بالاضافة الى ما يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها وهي على التحقيق أول الطريقة ، وما قبل ذلك كاندھليز للمسالك اليه ، ومن أول الطريقة تبتدى المكاشفات والمشاهدات ، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الانبياء ويسمعون منهم ، ويقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والامثال الى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، ولا يحاول التعبير عنها معبر الا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكن الاحتراز عنه .

ثم قال : وعلى الجملة ينتهي الامر الى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ ، وقد بينا وجه الخطأ في كتاب (المقصد الاسنى) .

والغزالي الذي يؤمن بالصوفية هذا الايمان الذي جر عليه نقد المتفقهة والمحدثين ، ورموه بسببه عن قوس واحدة من سهام من اطلعن والتجريح مما قدمنا بعضه ، لا يلغى عقله مع السادة الصوفية اذا وصل الامر الى أساس العقيدة النبي قضى عمره ينافح عنها ويكافح في سبيلها جميع الطوائف والفرق ، ولا يترك علمه ومنطقه العقلي الذي اسس عليه الجدل في سبيل الدفاع عن العقيدة حتى حصنها تحصينا قويا ووقف يحميها ويدود عنها حتى لقبته الامة كلها (حجة الاسلام) .

والذي أشار اليه من بيان الخطأ على ما يتخيله من انتهى به الامر الى القرب من الحلول والاتحاد والوصول هو الذي وقع فيه كثير ممن ذلت أقدامهم ، والغزالي يذكر فيهم بعض الاكابر ويرد عليهم ونحن نسوق هذا الرد لبيان أن الغزالي لم يستطع ان - يتخلى عن علومه الكلامية ، وهي التي كانت حصنه الذي حفظه عن الوقوع فيما وقع فيه غيره .

قال الغزالي في شرح أسماء الله الحسنی بعد أن ذكر ردف كل اسم شرحه تنبيها على ما للمعباد من حظ في هذا الاسم . (ولقد سمعت الشيخ أبا علي الفارمدي يحكي عن شيخه أبي القاسم المكركاني قدام الله روحهما انه قال : ان الاسماء التسعة والتسعين تصير أوصافا للمعبد السالك وهو يعد في السلوك غير واصل وهذا الذي ذكره ان أراد به شيئا يناسب ما أوردناه فهو صحيح ، ولا يظن به الا ذلك ويكـون في اللفظ نوع من

التوسع والإبتعارة، فإن، معانى الاسماء هي صفات الله تعالى وصفاته إلا
 نصير صفة لغيره ولكن معناه إنه يحصل له ما يناسب تلك الأوصاف كما
 يقال، فلان حصل علم، استياد، وعلم، الإبتداء لا يحصل، للتلميذ بل يحصل
 له مثل علمه، وان ظن ظان، إن المراد به ليس بما ذكرناه، فهو باطل قطعاً
 فأنى أقول : القائل إن، معانى اسماء الله صارت أوصافاً له لا يخلوا أما إنه
 عنى به غير تلك الصفات أو مثلها فإن عنى به مثلها فلا يخاف، أما إنه عنى
 به مثلها مطلقاً من كل وجه : وأما إن عنى به مثلها من حيث الاسم والمشاركة
 فى عموم الصفات دون خلوها من المعانى فهذان قسمان، وإن، عنى به، بعينها
 فلا يخلو، أما إن يكون بطريق انتقال، بالصفات، من، الرب، إلى، العبد أو لا
 بالانتقال، فإن، لم يكن، بالانتقال، فلا، يخلو، أما أن يكون
 باتحاد ذات العبد بذات الرب حتى يكون هو هو فيكون صفاته
 صفاته : وأما إن، يكون، بطريق، الحلول، وهذه أقسام، ثلاث
 وهو الانتقال والاتحاد والحلول فهذه خمسة أقسام الصحيح منها قسم
 واحد وهو أن يثبت للعبد من هذه الصفات أمور تناسبها على الجملة
 وتشاركها فى الاسم ولكن لا تماثلها مماثلة تامة كما ذكرناه فى التنبيهات
 وأما القسم الثانى وهو أن يثبت له أمثالها على التحقيق فمحال فإن من
 جملتها إن يكون له علم محيط بجميع المعلومات حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة
 فى الأرض ولا فى السموات وأن يكون له قدرة واحدة تشمل جميع
 المخلوقات حتى يكون بها خالق السموات والأرض ومبا بينهما وكيف
 يتصور هذا لغير الله تعالى ! وكيف يكون العبد خالق السموات والأرض
 وما بينهما وهو جملة ما بينهما ! فكيف يكون خالق نفسه ثم إن ثبتت
 هذه الصفات لعبدين يكون كل واحد منهما خالق صاحبه فيكون كل
 واحد منهما خالق من خلقه وكل ذلك ترهات ومحاولات .

وأما القسم الثالث وهو انتقال عين صفات الربوبية فهو أيضاً محال
 لأن الصفات يستحيل مفارقتها للموصوفات وهذا لا يختص بالذات القديمة
 بل لا يتصور أن ينتقل عين علم زيد إلى عمرو بل لا قيام للصفات إلا
 بخصوص الموصوفات، ولأن الانتقال يوجب فراغ المنتقل عنه فيوجب أن
 تعزى بالذات التى كان عنها انتقال الصفات الربوبية عن الربوبية،
 وصفة لها وذلك أيضاً ظاهر الاستحالة .

وأما القسم الرابع وهو الاتحاد فذلك أيضاً أظهر بطلانه لأن قول
 القائل إن، العبد صار هو الرب كلام متناقض فى نفسه بل ينبغى أذنيه
 الرب سبحانه عن أن يجرى اللسان فى حقه بأمثال هذه المحالات، ونقول
 قولاً بطلاً أن قول القائل إن، شيئاً صار شيئاً آخر محال على الإطلاق
 لأننا نقول إذا عقل زيد وحده وعمرو وحده ثم قيل إن زيدا صار عمرواً
 واتحد به فلا يخاف عند الاتحاد أما أن يكون كلاهما موجودين أو كلاهما
 معدومين أو زيد موجود وعمرو معدوم أو بالعكس ولا يمكن قسم وراء

هذه الاربعة فان كنا موجودين فلم يصير أحدهما عين الآخر بل عين كل واحد منهما موجود وانما الغاية ان يتحد مكانهما وذلك لا يوجب الاتحاد فان العلم والارادة والقدرة قد تجتمع في ذات واحدة ولا تتباين محالها ولا تكون القدرة هي العلم ولا الارادة ولا يكون قد اتحد البعض ببعض وان كان معنومين مما اتحد بل عدما ولعل الحادث شيء ثالث وان كان أحدهما معدوماً والاخر موجودا فلا اتحاد اذ لا يتحد موجود بمعدوم فالاتحاد بين الشئيين مطلقا محال هذا جار في الذوات المتماثلة فضلا عن المختلفة فانه يستحيل أن هذا السواد ذاك السواد كما يستحيل أن يصير هذا السواد ذلك البياض أو ذلك العلم ، والتباين بين العبد والرب أعظم من التباين بين السواد والعلم فاصل الاتحاد إذا باطل وحيث يطلق الاتحاد ويقال هو هو ولا يكون إلا بطريق التوسع والتجاوز اللائق بعادة الصوفية والشعراء فانهم لاجل تحسين موقع الكلام من الافهام يسلكون سبيل الاستعارة كما يقول الشاعر :

(أنا من أهوى ومن أهوى أنا)

وذلك مؤول عند الشاعر فانه لا يعنى به أنه هو تحقيقا بل كأنه هو فانه مستغرق الهم به كما يكون هو مستغرق الهم بنفسه فيعبر عن هذه الحالة بالاتحاد على سبيل التجوز وعليه ينبغى أن يحمل قول أبى يزيد حيث قال انسلخت من نفسى كما تنسلخ الحية من جلدها فنظرت فاذا أنا هو ويكون معناه أن من ينسلخ من شهوات نفسه وهواها وهمها فلا يبقى فيه متسع لغير الله ولا يكون له هم سوى الله تعالى فاذا لم يحل فى القلب الا جلال الله وجماله حتى صار مستغرقا به يصير كأنه هو لا أنه هو تحقيقا .

وفرقت بين قولنا كأنه هو وبين قولنا هو هو ، لكن قد يعبر بقولنا هو هو عن قولنا كأنه هو كما أن الشاعر تارة يقول كأنى من أهوى وتارة يقول أنا من أهوى وهذه مزلة قدم فان من ليس له قدم راسخة فى المعقولات وبما لم يتميز له أحدهما عن الآخر فينظر الى كمال ذاته وقد تزين بما تلا فى من حلية الحق فيظن أنه هو فيقول أنا الحق وهو غلط غلط النصراني حيث رأوا ذلك فى ذات عيسى عليه السلام فقالوا هو الاله بل غلط من ينظر الى امرأة قد انطبع فيها صورة متلوثة فيظن أن تلك الصورة هي صورة المرأة وأن ذلك اللون لون المرأة وهيئات . بل المرأة فى ذاتها لا لون لها وشأنها قبول صور الالوان على وجه يتخيل الى الناظرين الى ظاهر الامور أن ذلك هي صورة المرأة حتى أن الصبي اذا رأى انسانا فى المرأة ظن أن الانسان فى المرأة فكذلك القلب خال عن الصور فى نفسه وعن الهيئات وانما هيئته قبول معانى الهيئات والصور والحقائق فما يحله يكون

كما المتحد به لا انه متحد به تحقيقا ومن لا يعرف الزجاج واخبر اذا رأى
 بحاجة فيها خمر لم يدرك تباينهما فتارة يقول لاخمر وتارة يقول لا زجاجة
 فكما عبر عنه الشاعر حيث قال :

رق الزجاج وزاقت الخمر فتشابهها فتشاكل الامر
 فكأنه خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر
 وقول من قال منهم :

أنا الحق فاما أن يكون معناه معنى قول الشاعر
 أنا من أهوى ومن أهوى أنا

واما ان يكون قد غلط في ذلك كما غلطت النصارى في ظنهم اتحاد
 الانلاهوت بالناسوت وقول ابي يزيد، إن صح عنه (سيحاني ما أعظم شأنى)
 اما أن يكون ذلك جاريا على لسانه في معرض الحكاية عن الله تعالى كما
 لو سمع وهو يقول (لا اله الا أنا فاعبدنى) لكان يحمل على الحكاية واما
 أن يكون قد شاهد كما لا لاحظ من صفة القدس على ما ذكرنا في الترقى
 بالمعرفة عن الموهومات والمحسوسات وبألهمه من انحطوط والشبهوات
 فأخبر عن قدس نفسه فقال سيحاني ورأى عظم شأنه بالاضافة الى
 عموم الخلق فقال ما أعظم شأنى وهو مع ذلك يعلم أن قدسه وعظم شأنه
 بالاضافة الى الخلق فلا نسبة له الى قدس الرب تعالى وعظم شأنه ويكون
 قد جرى هذا اللفظ على لسانه فى سكر وغلبة حال فإن الرجوع الى
 الصحو واعتدال الحال يوجب حفظ اللسان عن الالفاظ الموهمة وحال
 السكر ربما لا يحتمل ذلك فان جاوزت هذين التأويلين الى الاتحاد فذلك
 محال قطعا فلا تنظر الى مناصب الرجال حتى تصدق بالمحال بل ينبغي
 ان تعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال .

(وأما القسم الخامس) وهو الحلول فذلك يتصور بأن يقال ان الرب
 حل فى العبد أو العبد حل فى الرب تعالى رب الارباب عن قول الظالمين
 بهذا لو صح لما أوجب الاتحاد ولا ان يتصف العبد بصفات الرب فان
 صفات الحال لا تصير صفة المحل بل تبقى بصفة الحال كما كان ووجه
 استحالة الحلول لا يفهم الا بعد فهم معنى الحلول فان المعانى المفردة اذا
 لم تدرك بطريق التصور لم يمكن ان يعلم نفيها أو اثباتها فمن لا يدرك
 معنى الحلول فمن أين يدرك ان الحلول موجود أو محال فنقول المفهوم من
 الحلول أمران احدهما النسبة التى بين الجسم وبين مكانه الذى يكون
 فيه وذلك الا يكون بين الجسمين فالبرى عن معنى الجسمية يستحيل
 فى حقه ذلك . والثانى النسبة التى بين العرض والجوهر فان العرض
 يكون قوامه بالجوهر فقد يعبر عنه بأنه حال فيه وذلك محال على كل ما

قوامه بنفسه فدع عنك ذكر الرب تعالى فى هذا المعرض فان كل ما قوامه
ينكشف له جليلة الحق ويصير مستغرقا به فان نظر معرفته فلا يعرف الا
بنفسه يستحيل أن يحل فى ما قوامه بنفسه الا بطريق المجاورة الواقعة
بين الاجسام فلا يتصور الحلول بين عبيدين فكيف يتصور بين العبد والرب
تعالى واذا بطل الحلول والانتقال والاتحاد والاتصاف بأمثال صفات الله
تعالى على سبيل الحقيقة لم يبق لقولهم معنى الا ما اشرنا اليه فى التبيهات
وذلك بمنع من اطلاق القول بأن معانى اسماء الله تصير اوصافا للعبد الا
على نوع من التقييد خال عن الالهام والا فمطلق هذا المفظ موهب

فان قلت فما معنى قوله ان العبد مع الاتصاف بجميع ذلك سنانك لا
واصل فما معنى السلوك وما معنى الوصول ؟

فاعلم ان السلوك هو تهذيب الاخلاق والاعمال والمعارف وذلك
اشتغال بعبارة الظاهر والباطن والعبد فى ذلك مشغول بنفسه عن ربه
الا انه مشغول بتصفيته باطنه ليستعد للوصول وانما الوصول هو ان
ينكشف له جليلة الحق ويصير مستغرقا به فان نظر الى معرفته فلا يعرف الا
الله تعالى وان نظر الى همته فلا همه له سواء فيكون كله مشغولا بكنهه
مشاهدة وهما لا يلتفت فى ذلك الى نفسه ليعم ظاهره بالعبادة وباطنه
بتهذيب الاخلاق وكل ذلك طهارة وهى البداية وانما النهاية ان ينسلخ
من نفسه بالكلية وينجرد له فيكون كأنه هو ، وذلك هو الوصول .

فان قلت الكلمات الصوفية تنبىء عن مشاهدات انفتحت لهم فى
طور الولاية والعقل يقصر عن درك الولاية وما ذكرتموه تصرف ببضاعة
العقل .

فاعلم انه لا يجوز ان يظهر فى طور الولاية ما يقضى العقل
باستحالة نعم يجوز ان يظهر فيها ما يقصر العقل عنه بمعنى انه لا يدركه
بمجرد العقل . مثاله انه يجوز ان يكشف الولي بأن فلانا سيموت غدا
ولا يدرك ببضاعة العقل بل يقصر العقل عنه ولا يجوز ان يكشف بأن
الله غدا سيخلق مثل نفسه فان ذلك يحيله العقل لا انه يقصر عنه وابتعد
من ذلك ان يقول : ان الله سيجعلنى مثل نفسه وأبعد منه ان يقول : ان الله
سيصيرنى نفسه أى اصير أنا هو ، لان معناه انى حادث والله سيجعلنى
قديما ولست خالق السموات والارضين والله يجعلنى خالق السموات
والارضين وهتينا معنى قوله نظرت فاباذا أنا هو ، اذا لم يؤول
وحيل على ظاهره ، ومن صدق بمثل هذا الحال فقد انخلع عن غريزة
العقل ولم يتميز عنده ما يعلم عما لا يعلم فليصدق بأنه يجوز ان يكشف
ولى بأن الشريعة باطلة وانها وان كانت حقا فقد يقلبها الله باطلانها فجعل
جميع اقوال الانبياء كذبا وان من قال يستحيل ان ينقلب الصدق كذبا
فانما يقول ببضاعة العقل فان انقلاب الصدق كذبا ليس بأبعد من انقلاب

الجاذب قديما والعبد ربا ومن لا يفرق بين ما أحله العقل وبين ما لا ياله العقل فهو أحسن من أن - يخاطب فليترك وجهه .

قلنا : هذا فصل مهم جدا في بيان صوفية الغزالي ذكرناه بطوله لأنه يبين بiana شافيا أن الغزالي رحمه الله دخل في الصوفية بعلمه وعقله وإن تضلعه من علم الكلام ومنطق العقل جعله إلا يقبل في عقيدته ما لا يقره عقله ولا يرضاه علمه ، مهما كان مقام من صدر عنه ذلك ، فاعتداد أبي حامد بعلمه وعقله حصنه من مزالق الجموح عند الصوفية وجعله يردد في كتبه تلك الكلمة النابغة الحكيمة الجلييلة (لا تنظر الى مناصب الرجال حتى تصدق بالمحال ، بل ينبغي أن تغرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال)

لغزالي فصل آخر في كتاب (المقصد الاسنى) تكلم فيه على معرفة الله تعالى عند الصوفية ، ورفع عنهم الاشتباه الذي قد توجه به بعض عبارات منسوبة الى أكابرهم فقال : (ان خاصية الإلهية انه الوجود الواجب بذاته التي عنها يوجد كل ما في الامكان وجوده على أحسن وجوه النظام والكمال . . . وهذه الخاصية ليست الا لله تعالى ولا يعرفها إلا الله تعالى ، ولا يتصور أن يعرفها الا هو أو من كان مثله ، وإذا لم يكن له مثل فلا يعرفها غيره .

فاذا الحق ما قاله الجنييد رحمه الله تعالى ، حيث قال : (لا يعرف الله الا الله تعالى) ولذلك لم يعط أجل خلقه الا أسماء ججبه بها فقال : سبع اسم ربك الاعلى ، فوالله ما عرف الله غير الله تعالى في الدين والآخره وقيل لذي النون ، وقد أشرف على الموت ، ماذا تشتهي ؟ فقال (ان أعرفه قبل أن أموت ولو بلحظة) وهذا الآن يشوش قلوب أكثر الضعفاء ويوهم عندهم القول بالنفي والتعطيل ، وذلك لعجزهم عن فهم مثل هذا الكلام .

وأنا أقول : لو قال القائل : لا أعرف إلا الله تعالى . كان صادقا ولو قال : لا أعرف الله تعالى لكان صادقا . ومعلوم . ان النفي والاثبات لا يصدقان معا ، بل يتقاسمان الصدق والكذب ، فان صدق النفي كذب الاثبات وبالعكس ، ولكن اذا اختلف وجه الكلام تصور الصدق في القسمين . . .

فان قلت : فقولنا : انه الواجب الوجود الذي عنه وحده يوجد كل ما في الامكان وجوده عبارة عن حقيقة ، وقد عرفنا هذا ؟ فأقول : هيئات هيئات ، فان قولنا : واجب الوجود عبارة عن استغناؤه عن العلة والفاعل ، وهذا يرجع الى سلب السبب عنه ، وقولنا : يوجد عنه كل ما وتدير جمع الى اضافة الافعال الى الله تعالى . . .

فان قيل : فما السبيل الى معرفته ؟ فأقول : لو قال لنا صبي أو شين منا السبيل الى معرفة لذة الوقاع وادراك حقيقته ؟ قلنا : ها هنا

سبيلان ، أحدهما أن نصفه لك حتى تعرفه ، والاخر أن تصبر حتى تظهر فيك غريزة الشهوة ثم تباشر الوقاع حين تظهر فيك لذة الوقاع فتعرفه ، وهذا السبيل اثنانى هو السبيل المحقق المفضى الى حقيقة المعرفة ، فاما الاول فلا يفضى الا الى توهم وتشبيه للشئ ان يسمى لده ، ومهما ظهرت الشهوة وذاق علم قطعا انه لا يشبه حلاوة السكر ، وأن ما كان توهمه لم يكن على الوجه الذى توهمه ...

وكذلك لمعرفة الله سبيلان ، أحدهما قاصر ، والاخر مسدود : أما القاصر فهو ذكر الاسماء والصفات وطريقة التشبيه بما عرفناه من أنفسنا فانا عرفنا أنفسنا قادرين عالين احياء متكلمين ، ثم سمعنا ذلك فى اوصاف الله ، وعرفنا بالدليل ففهمناه فهما قاصرا كفهم العنين لذة الجماع بما وصف له من لذة السكر .. وفائدة تعريف الله تعالى بهذه الاوصاف ايضا ايهاهم ، وتشبيهه ، ومشاركة فى الاسم بما لا يشبهه ... أما الايهاهم فانه يتوهم أن ذلك أمر طيب على الجملة ، وأما التشبيه فهو أنه شبهه بحلاوة السكر فى الاسم ، لكن قطع التشبيه بأن يقال ليس كمثله شئ فهو حى لا كالاحياء وقادر لا كالقادرين ... وأما السبيل المسدود فهو أن ينتظر العبد أن تحصل له صفات الربوبية كلها حتى يصير ربا ، كما ينتظر الصبي أن يبلغ فيدرك لذة الوقاع ، وهذا السبيل مسدود ممتنع ، اذ يستحيل أن تحصل تلك الحقيقة لغير الله تعالى ، وهذا هو السبيل الى المعرفة المحققة . لاغير ، وهو مسدود قطعا الا على الله تعالى وتقدس وحده ، فاذا يستحيل أن يعرف الله تعالى بالحقيقة غير الله تعالى ...

فكيف يتعجب المتعجبون من ولنا : لم يحصل أهل الارض والسما من معرفة الله الا على الاسماء والصفات ...؟

فإن قلت : فما نهايه معرفة العارفين بالله تعالى ؟ فنقول : نهايه معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة ، ومعرفتهم بالحقيقة هي أنهم يعرفونه وانهم لا يمكنهم البتة معرفته فانه يستحيل أن يعرف الله تعالى المعرفة الحقيقية المحيطة بكنه صفات الربوبية الا الله تعالى ، فاذا انكشف لهم ذلك انكشافا برهانيا كما ذكرناه فقد عرفوه الى بلوغ المنتهى الذى يمكن فى حق الخلق من معرفته ، وهو الذى أشار اليه الصديق الاكبر حيث قال : (العجز عن درك الادراك ادراك) بل هو الذى عناه سيد البشر صلوات الله تعالى عليه وسلامه حيث قال : (لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) ولم يرد أنه عرف منه ما لا يطوعه لسانه فى العبارة عنه ، بل معناه : أنى لا أحيط بمحامدك وصفات الهيئك ، وانما أنت المحيط بها وحده ...

ويتفاوت الخلق فى معرفة الله تعالى بقدر ما انكشف لهم من معلومات.

الله تعالى وعجائب مقسوداته وبدائع آياته فى الدنيا والاخرة
والملك والملوكوت .

فاذا قد عرفت كيف تنفذت الخلق فى بحار معرفة الله ، وان ذلك
لا نهاية له وعرفت أن من قال : لا يعرف الله الا الله فقد صدق ، ومن
قال : لا أعرف الا الله فقد صدق ، فإنه ليس فى الوجود الا الله وأفعاله .

ثم ختم الامام الغزالي هذا الفصل بقوله : (ولنغيب عنك اسرار
فقد خضنا لجة بحر لا ساحل له ، وامثال هذه الاسرار لا ينبغي أن تبذل
بإيداعها الكتب ، واذ جاء عرضها عند غير معصود لمنتهى عنه .

والغزالي رحمه الله تعالى دخل الصوفية على قدم المجاهدة والريضة
والقيام لله تعالى بحق العبودية من استدامة الاذكار والجد فى وظائف
العبادات - والامعان فى النوافل وكلف المشاق فى محاسبة النفس
ومراقبتها حتى كان هذا النهج معروفا به منسوباً اليه بين طوائف
المتصوفين .

ومن هنا عقد بعض متأخري الصوفية موازنة بين طريق الغزالي ،
وطريق غيره من أرباب انقلاوب ، قال ابن المبارك السجلماسى فى كتاب
الابريز : سئل الشيخ العارف عبد العزيز الدباغ : ما الفرق بين طريقة
الولى العارف الشاذلى وأتباعه . وطريقة الغزالي وأتباعه حتى أن الاولى
مدارها كلها على الشكر والفرح بالمنعم من غير مشقة واد كلفة والاخرى
مدارها على الرياضة والتعب والمشقة والسهر والجوع وغيرهما فهل هما
سيدى متوافقان على الرياضة وانما يأمر الشاذلى بالشكر بعد القرب للوصول
أو عنده ، أو هو أمر بالشكر والفرح بالله من أول وهلة وسحب البداية ونيل
الطريقان يمكن سلوكهما لرجل واحد أولا يمكن أن ينتفع باحدهما الا
بالاعراض عن الاخرى .

فاجاب رضى الله عنه بأن طريقة الشكر هى الاصلية وهى التى كانت
عليها قلوب الانبياء والاصفياء من الصحابة وغيرهم وهى عبادة الله على اخلاص
العبودية والبراءة من جميع المحظوظ مع الاعتراف بالجزء والتقصير وعدم
توفية الربوبية حقها ويكون ذلك رقى للقلب على ممر الساعات والازمان فلما
علم تبارك وتعالى الصادق فى ذلك اثابهم بما يقتضيه كرمه من الفتح فى
معرفة ونيل اسرار الايمان به عز وجل .

فلما سمع أهل الرياضة بما حصل لهؤلاء من الفتح جعلوا ذلك هو
مطلوبهم ومرغوبهم فجعلوا يطلبونه بالصيام والقيام والنسهر ودوام
الخلوة حتى حصلوا على ما حصلوا ، فالتجربة فى طريق الشكر كانت من
أول الامر الى الله والى رسوله لا الى الفتح ونيل الكسوفات ، والتجربة فى
طريق الرياضة كانت للفتح وهو فى الاولى هجومي لم يحصل من العيد

تشوق اليه فبيشما الفريد في مقام طلب التوبة والاستغفار من الذنوب اذ جاءه الفتح المبين والطريقتان على صواب لكن طريقة الشكر أصوب واخلص والطريقتان متفقتان على الرياضة لكنها في الاولى رياضة القلوب بتعلقها بالحق سبحانه والزامها بالعكوف على بابه والابجا الى الله في الحركات والسكنات والتباعد عن الفعلة المستخللة بين أوقات الحضور .

وبالجملة فالرياضة فيها تعليق القلب بالله عز وجل على الدوام وان كان الناظر غير متابع بكبير عبادة واذا كان صاحبها يصوم ويفطر ويقوم وينام ويتقرب النساء ويأتى بسائر وظائف الشرع التي تقتضيها رياضة الابدان .

ثم قال الشيخ الدباج والغزالي امام حق وولى صادق ولا تنافي بين الطريقتين فيمكن للعبد أن يعلق قلبه بالله عز وجل في سائر حرركاته وسكناته ويقوم ظاهره في المجاهدة والرياضة .

ويظهر لنا أنهما منهجان عند التصوفة ، عبر عنهما الامام العليم أبو سعيد الخراز في قوله في بيان المعرفة والطريق الموصل اليها انها (تأتي من عين الجود ، ومن بذل المجهود) .

وقد كتب الغزالي رحمه الله تعالى في « التصوف » كما كتب في غيره من سائر الفنون والعلوم ، والمعروف المتعالم ان اشهر كتبه في « التصوف » هو أعظمها على الاطلاق كتاب (احياء علوم الدين) وقد شغل الناس شخصيتهم وعامتهم بهذا الكتاب ، ولا يزالون يشغلون به ، وذكرنا ما للعلماء فيه من نقد أو مدح .

(وكتاب الاحياء) في جلاله قدره لا ينكر الغزالي ان الناس صنفوا في بعض معانيه ، ولكنه يذكر ان كتابه يمتاز عن مصنفات الناس في موضوعه بخمسة أمور :

- الاول - جل ما عقده وكشف ما أجهلوه .
- الثاني - ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه .
- الثالث - ايجاز ما طولوه وضبط ما قررروه .
- الرابع - حذف ما كرروه واثبات ما حرروه .

الخامس - تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الافهام لم يتعرض لها في الكتب أصلا اذا لكل وان تواردوا على منهج واحد فلامستكران يتفرد كل واحد من السالكين بالثبني لا امر يخصه ، ويغفل عنه رفقاؤه ، أولا يغفل عن انتباهه ولكن يسهو عن ايزاده في الكتب ، أولا يسهو ولكن

يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف ، فهذه خواص هذا الكتاب مع كونه
حاويا لمجامع هذه العلوم .

والناظر فى كتاب (الاحياء) مع نظره فى كتب أئمة الصوفية
الاربعة (المحاسبي - الخراز - أبى طالب المكي - القشيري) وهم الذين
تمريضها لهم ولتتبعهم باعتبارهم الذين قيدوا مذهب المتصوفة بعد تبديده
وضبطوه بعد انتشاره ، ونظموه بعد انتشاره حتى اكتملت مقوماته
واستقامت دعائمه فى مؤلفاتهم ، يرى ان كتب أولئك الأئمة كانت مراجع
للإمام الغزالي فى تأليف (الاحياء) الى جانب علمه الغزير وعقله الكبير
وفى خزائن الصوفية يجد انباحثون مفتاح شخصية الغزالي رحمه
الله لا باعتبار أنه صوفى اعتنق الصوفية مذهبا ، فكتب فى أجوال أهلها
ومقاماتهم ، ووطد دعائم علومهم وإنما باعتبار انفراد به الغزالي عن
سائر الصوفية ، بل عن سائر العلماء .

ذلك هو ما نسميه (فقه النفس) فالغزالي (فقيه النفس) عبقرى
العقل ، ونعنى بفقه النفس غوصه على أسرار الشريعة ، وبيان حكم
احكامها بحقائق قلبية وأمور روحية تجعل من هذه الاحكام غايات محبة
تنهض اليها النفوس راغبة محبة ، وذلك ما نجده فى كثير من كتب
الغزالي ، ولا سيما درتها اليتيمة (الاحياء) ففيه من أسرار الشريعة ما لم
يوجد فى غيره من كتب الصوفية ولا كتب الفقهاء ، والى هذا المعنى
العظيم فى الغزالي يرجع انتهاؤه الى الصوفية واعتصامه بها حتى لقي
الله على خير حالاتها صوفيا عليما ، وعليما صوفيا .

هل شك حجة الاسلام

يجمع باحثو الغزالي على أنه رحمه الله شك وأمعن في الشك ، وهم يعتمدون على اعترافات الغزالي نفسه بأنه (دام قريباً من شهرين كان فيهما على مذهب السفسطة) وبأنه تطلب العلم بحقائق الامور على وجه يقينى ينكشف معه العلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، وبأنه فتش عن علومه فوجد نفسه عاطلاً عن علم موصوف بهذه الصفة الا فى الحسيات والضروريات وبأنه توجه الى النظر فيهما ليتيقن ان ثقته بالمحسوسات ، وأمان الغلط فى الضروريات من جنس ما كان له من قبل فى التقليديات ، ومن جنس أمان أكثر الناس فى النظريات ، أم هو أمان محقق لا غدر فيه ولا غائلة له ؟

وبأنه أقبل يمتحن المحسوسات والضروريات لينظر هل يمكن أن يشكك فيها نفسه ؟ وبأنه انتهى به طـول التشكيك الى أنه لا ثقة بالمحسوسات ، لان حاسة البصر وهى أقواها تريـك الشيء موجوداً وهو غير موجود ، وانـشئ غير موجود وهو موجود ، وتريك الكبير صغيراً فبطلت عنده الثقة بالمحسوسات ، فاتجه الى العقلية الاولى ، وقال : لعله لا ثقة الا بها ، ولكن المحسوسات اعترضت طريقه فى ثقته بالعقلية ، وأبانت له انه يحتمل أن يكون وراء حاكم العقل حاكم آخر اذا ظهر يكذب العقل فى حكمه وعدم ظهور ذلك لا يدل على استحالتـه .

وبأنه لما خطرت له هذه الخواطر وانقدحت فى النفس حاول علاجها فلم يتيسر له اذ لم يمكن دفع ذلك الا بدليل ، ولم يمكن نصب دليل الا من تركيب العلوم الاولى وهى المحسوسات والعقلية الضرورية ، فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب دليل ، فأعـضل عليه هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين كان فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال ، حتى شفى الله تعالى ذلك المرض وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ورجعت انـضروريات العقلية مقبولة موثقاً بها على أمن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف .

هذه هى اعترافات ابى حامد على نفسه فى الشك ملخصة من كتابه (المنقذ من الضلال) والاعتراف - كما يقولون أقوى أدلة الاثبات .

وكذلك اعتمد باحثو ابو حامد فى شكه على قوله فى آخر كتابه .
(ميزان العمل) (ولو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات الا ما يشكك
فى اعتقادك الموروث لنتدب للطلب فناهيك به نفعا اذ اشكوك هـى
الموصلة الى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن
لم يبصر بقى فى العمى والضلال) .

وهذا تحسين بانغ للشك ، لانه جعله موصلا للحق ، والحق عنده
هو اليقين الذى لا ريب فيه ، ولا يمكن معه الغلط ، وجعل الشك طريق
النظر الموصل الى ابصار الحقائق للخروج من العمى والضلال .

واذا كان يرى ذلك طريقا لغيره فبالحرى ان يكون طريقه هو الى
معلوماته ونحن نقف من هذا الموضوع عند أبى حامد موقف الشك فيه
معتمدين على ان بعض الباحثين يرون ان الشك بدأ مع الغزالي منذ
انحلت عنه رابطة التقليد فى سن قريبة عهد بسن الصبا ، وقد صرح
بذلك الاستاذان (كامل عياد) و (جميل صليبة) فى مقدمتهما لكتاب
(المنقذ من الضلال) وذلك كان - فى نظرهما - قبل مغادرته نيسابور
للمرة الاولى فى وقت تلمذته لامام الحرمين .

ويرى (ديبور) فى كتابه تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، هذا رأى ،
وبعضهم يذهب الى ان الشك تملك ابا حامد بعد خروجه من نيسابور
الى المعسكر فى المدة التى اقامها فى حضرة نظام الملك .

وهذا الاضطراب يدل على عدم تحقيق هذه المسألة فى حياة الغزالي ،
فلم يبق الا اصل وجودها المعتمد على اعتراف أبى حامد .

ولنا توجيه فى اعتراف أبى حامد ببرئه من الشك ويصحح
الاعتراف ، ذلك ان - أبا حامد يقصد بهذا الكلام الذى شرح فيه اعترافه
الى نون من الاسلوب فى الحجاج وكان كثير الخصوم فى الجدل والمناظرات ،
فأراد بذلك ان يكسر شوكة خصومه عن طريق الايحاء ، ويحدث هزة
فكرية فى المجتمع الذى كان ميدان فضاله ، كما يقصد الى التمهيد الى
الجديد من أفكاره حتى يأمن ثورة انعامه ، ويقصد الى تشكيك الناس فى
الفلسفة التى انتهض للرد عليها ، والفلسفة انما تعتمد على أدلة العقل
وبراهينه .

ومما يرشح ما ذهبنا اليه ان الغزالي فى هذه الفترات التى يزعم
الباحثون ان الشك تملك فيها الشيخ الامام كان اصح نفسا وأقوى
عارضة ، وأصلب قناة أمام خصومه ، والشاك لا يمكن ان تكون معه
هذه القوة ، ولكن الغزالي كان قويا مع خصومه ، قويا فى مصنفاته
وتأليفه .

وقد تنبه الأستاذ (سليمان دنيا) في كتابه (الحقيقة في نظر الغزالي) الى ذلك فقال ، (وما يثير الدهشة ان شابا في الحقيقة بصدر تأييد ايجابية حول الحقيقة ، ويدرس حول الحقيقة تدريسا ايجابيا) . ثم قال : (لكنني لاحظ على الغزالي في نقده للفلسفة انه غير مستجيب لداعي شكه ، لان قارئ كتاب التهافت يلاحظ ان صاحبه لا يزاول عملية الهدم فحسب ، بل هو يهدم ليفتح المجال لشيء معه لا يقوم على هذه الانقاض)

وذلك حيث يقول الغزالي : (ونحن هم نلتزم في هذا الكتاب الا تكذيب مذهبيهم ، واما اثبات المذهب الحق فسنصنف فيه كتابا بعد الفراغ من هذا ... ونعتنى فيه بالاثبات كما اعتنينا في هذا بالهدم) وهذا واضح في ان الغزالي كان متشبثا من نفسه في هدمه لمذهب الفلسفة ، ومتشبثا من نفسه في عزمته اقامة بناء عقيدتي يحل محلها ، فأين أثر الشك عند الغزالي ؟

على ان شك الغزالي في اعترافاته لم ينصب على عقيدته وانما انصب على مسالك العقيدة ، والعقيدة موجودة عند الغزالي قبل نظره في هذه المسالك ، ثم تشكيك الغزالي في مسالك الادلة ضعيفا جدا ، لان الغزالي لا يغيب عنه ان البصر آلة ادراك للمحسوسات وتختلف باختلاف قوتها الخلفية ، وباختلاف قرب الاشياء وبعدها عنها ، وليس ذلك تضديلا في حقيقة العلوم ، وانما هو نقص في الآلة وقوله في العقل اضعف من قوله في الحس ، لانه مبني على فرض وتخيل ، لم يجد ما يقويه به الاحالة النوم والا ما يدعيه الصوفية من حالة ادراكية فوق ادراك العقل .

وكان ابا حامد رضى الله عنه اراد ان يخلص الى هذه النقطة العظيمة في حياته بالتمهيد لها بهذا القول في الشك ، تلك النقطة التي غيرت حياة ابي حامد تغييرا كبيرا ، ونعنى بها صيرورته الى التصوف والصوفية تخلصا من حياته الاجتماعية التي عاشها طوال عمره الا قليلا مما أدركه في ظل الصوفية من انهود النفسي والعقلي وكان ابو حامد مشتتيا في حياته الاجتماعية بقيود صعبة ، لا يخلص منها الا بضرب من هذا اللون الفكري الذي يضعف القيود الاجتماعية ويمهد الطريق امامه للخلاص منها .

وهذا موضوع يحتاج الى بحث خاص ، وله أهميته في حياة ابي حامد ونرجو ان تتمكن من تحقيقه اذا انشأ الله في الاجل ، وانما قصدنا هنا الى التنبيه لعل احدا من الاباحيين يشبه عن ساعد الجيد فيحقق هذا الجانب من حياة هذا العبقرى الذي شغل الدنيا بعلمه وعقله ووروحه . رحم الله ابا حامد ورضى عنه وانزله منازل الصادقين .

فتاوى وآراء حسرة

والامام الغزالي يميل الى حرية العقل ، والانطلاق في التفكير ، وله آراء مستقلة في كثير من مسائل الدين يخالف فيها رأى الجمهور من العلماء ولكنها مدعومة بالدليل والبرهان .

ومن هذه المسائل التي أجاب فيها الغزالي برأى مستقل عن العصبية المذهبية ما أورده ابن خلكان في ترجمة الكيا الهراسي اذ يقول: وسئل الكيا عن يزيد بن معاوية فقال انه لم يكن من الصحابة لانه وند في أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأما قول السلف في لعنه ففيه لاحمد قولان تلويح وتصريح ولمالك قولان تلويح وتصريح ولا يى حنيفه قولان تلويح وتصريح ولنا قول واحد التصريح دون التلويح وكيف لا يكون كذلك وهو اللاهع بالنزد والمتصيد بالفهود ومدة من الحمر وشعره في الحمر معلوم ومنه قوله :

أدول لصحب ض ، الكاسي شملهم :

وداعى صبايات الهوى يثرنم

خذوا بنصيب ن نعيم ولذة :

فكل وان طال المدى يتصرم

ولا تتركوا يوم السرور الى غد :

فرب غد يأتى بما نيس يعلم

وكتب فصلا طويلا ثم قلب الورقة وكتب لو تمددت ببياضن لمددت

العنان فى مخازى هذا الرجل .

رأى الغزالي

وقد أفتى الامام ابو حامد الغزالي رحمه الله تعالى فى مثل هذه المسئلة بخلاف ذلك فانه سئل عن صريح بلعن يزيد بحكم بقسقه أم هل يكون ذلك مخصصا له فيه ؟ وهل كان مريضا قتل الحسين رضى الله عنه ، أم كان قصده الدفع ، وهل يسوغ الترحيم عليه أم السكوت عنه أفضل ، تدسم بأزالة الاشتباه مثابا فأجاب لا يجوز لعن المسلم أصلا ومن لعن مسلما فهو ملعون ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المسلم ليس بلعان أو كيف يجوز لعن المسلم ولا يجوز لعن البهائم ، وقد ورد النهى عن ذلك وحرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة بنص النبي صلى الله عليه وسلم ، ويزيد صبح إسلامه وما صبح قتله الحسين رضى الله عنه والأمر به ولا رضاه ومهما لا يصح منه لا يجوز ان يظن ذلك به فان أساءة الظن بالمسلم أيضا حرام وقد قال تعالى (اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم) وقال النبي صلى الله عليه وسلم (ان الله حرم من المسلم دمه وماله وعرضه وان يظن به ظن الشبهة) ومن زعم ان يزيد أمر بقتل الحسين رضى

الله عنه أو رضى به فينبغي ان يعلم به عاية الحمافه فان من قتل من الاطهر
والوزراء واسلاطين فى عصره لو اراد ان يعلم حقيقته من الله امر به
ومن الله رضى به ومن الله كرهه لم يقدر على ذلك وان كان الله قد
قتل فى جواره وزمانه وهو يشاهد ، فليف لو كان فى بلاد بنييه
وزمن قديم قد انقضى ؛ فكيف يعلم ذلك فيمسا انقضى عليه وريب
من اربعمائه سنة فى مكان بعيد ؛ وقد تطرق التعصب فى الواقع
فدثرت فيها الاحاديث من الجوانب فهذا الامر لا يعلم حقيقته اصلا
واذا لم يعرف وجب احسان الظن بكل مسلم يمكن احسان
الظن به ومع هذا لو ثبت على مسلم انه قتل مسلما فذهب اهل الحق انه
ليس بكافر ، وان قتل ليس بكفر بل هو معصية ، واذا مات القاتل فربما
مات بعد التوبة والكافر لو تاب من كفره لم تجز لعنته فكيف من تاب عن قتل
ولم يعرف ان قاتل الحسين رضى الله عنه مات قبل التوبة (وهو الذى
يقبل التوبة عن عباده) فاذن لا يجوز لعن احد ممن مات من المسلمين
ومن لعنه كان فاسقا عاصيا لله تعالى ولو جاز لعنه فسكت لم يكن عاصيا
بالاجماع بل لو لم يلعن ابليس طول عمره لا يقال له يوم القيامة لم لم
تلعن ابليس ويقال للاعن لم لعنت ومن أين عرفت انه مطرود ملعون
والملعون هو البعيد من الله عز وجل وذاك غيب لا يعرف الا فيمن مات
كافرا ، فان ذلك علم بالشرع واما الترحم عليه فجاز بل هو مستحب
بل هو داخل فى قولنا فى كل صلاة اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات فانه
كان مؤمنا والله أعلم .

ومن هذه المسائل ما ذكره فى كتاب (فيصل التفرقة بين الاسلام
والزندقة) اذ يقول : (وأنا أقول انى للرحمة تشمل كثيرا من الامم
السالفة ، وان كان اكثرهم يعرضون على النار ، اما عرضة خفيفة حتى
فى لحظة أو فى ساعة ، وأما فى مدة حتى يطلق عليهم اسم بعث النار، بل
أقول : ان أكثر نصارى الروم والترك - يقصد كل من بعدت دياره عن دار
الاسلام ولم تبلغهم الدعوة فانهم ثلاثة اصناف صنف لم يبلغهم اسم
محمد صلى الله عليه وسلم اصلا فهم معذورون ، وصنف بلغهم اسمه ونعته
وما ظهر عليه من المعجزات وهم المجاورون لبلاد الاسلام والمخالطون لهم
وهو الكفار الملحذون وصنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم محمد صلى
الله عليه وسلم ولم يبلغهم نعته وصيفته بل سمعوا منه الصيا أو صافا
خضعه أو صافه الجميلة ، فهؤلاء عندي فى معنى الصنف الاول ، أى أنهم
معذورون ناجون ان شاء الله .

والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، والله ولى التوفيق

تم تحرير في مساء يوم الجمعة ٢٢ من ذى القعدة سنة ١٣٨١ هـ

الموافق ٢٧ من شهر ابريل سنة ١٩٦٢ م

من الشرق والغرب

تقديم

العالم والغرب

للمؤرخ الإنجليزي الكبير
أرنولد توينبي

ترجمة: عبد الواحد الإنبالي
مراجعة: صالح جودت

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون: ٤٥٣٤٦ - ٥٤٠٥ - ٣١٦٢٥